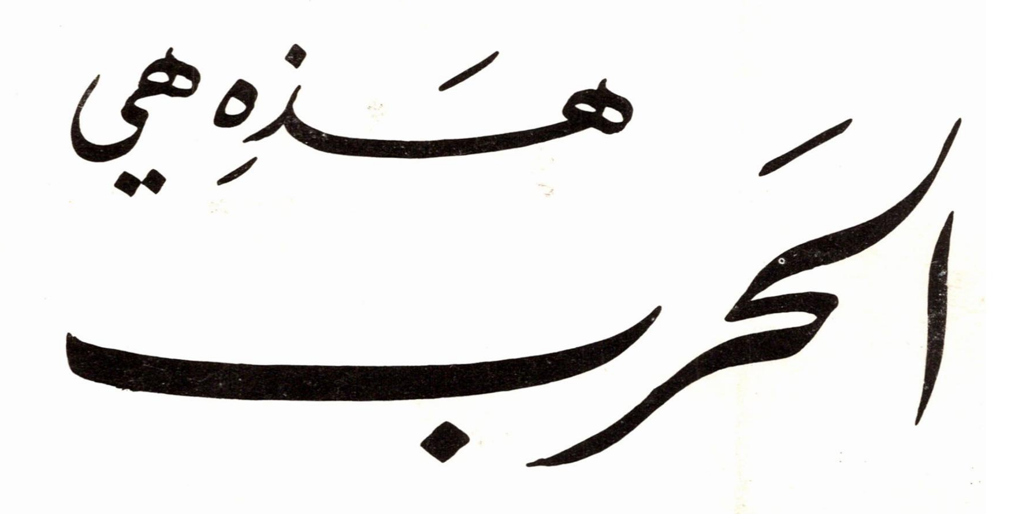
زدني عِلماً

غاستون بوتُول



هذه هي الحرب

ترجمَة

مروَان القنوَاتي

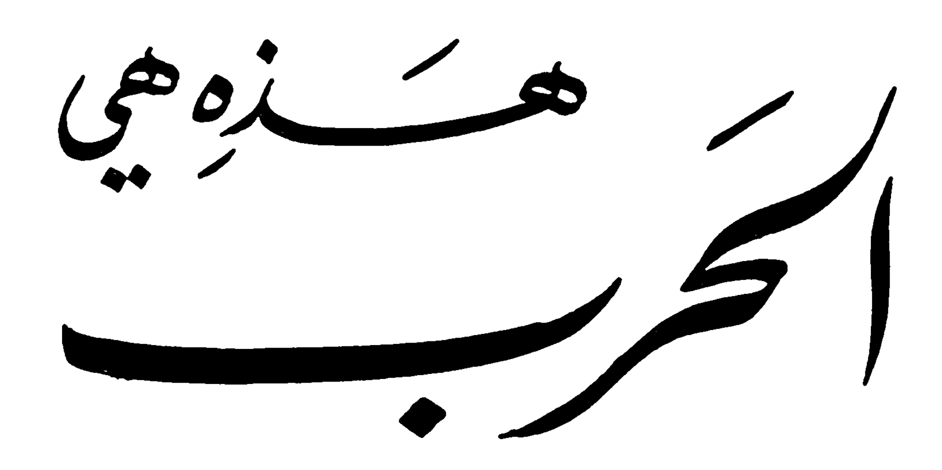
منشورات عويدات
بَيروت . بَاريس

هذه الترجمةُ العربيةُ ترجمةُ الكتاب الفرنسي الآتي :

Gaston Bouthoul, *La guerre*, Paris P.U.F., 1973 (Que sais-je ?).

وقد تُرْجِمَ هذا الكتابُ نفسُهُ أيضاً بالإنكليزية والكتلانية والإسبانية واليابانية والبرتغالية.

غاستون بوتول



ترجمة

مروان القنواتي

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الأولى ١٩٨١

تمهيد

علم الحرب الاجتماعي

La Polémologie(١)

ان الحرب أروع الظاهرات الاجتماعية بلا خلاف. واذا كان علم الاجتماع، كما قال دركايم، «التاريخَ مفهوما على صورة ما» استطعنا ان نقول : ان الحرب هي التي ولدت التاريخ. فالتاريخ بدأ في الواقع بكونه تاريخ المعارك المسلحة دون غيره، ولعلّه سيبقى دوما «تاريخ المعارك». ذلك بأن الحرب هي في الوقت نفسه أبرز المعالم (٢) التي نستند اليها في التأريخ وهي الحدود التي تدل على المنعطفات الكبرى

---

(١) لفظ مؤلف من أصلين يونانيين هما : polemos الحرب و Logos دراسة، ويعني علم الحرب على وجه العموم، وهو يدرس أشكالها وأسبابها وآثارها ووظائفها من حيث هي ظاهرة اجتماعية. وهو لفظ اقترحه غاستون بوتول سنة ١٩٤٦ في كتابه Cent millions de morts (Larousse mensuel, n° 401, p. 11).

(٢) والمَعْلَمُ الأَثَرُ يُسْتَدَلُّ به على الطريق وجمعه المَعالِمُ (لسان العرب).

للحوادث شئنا أم لم نشأ. فبالحرب كادت كل الحضارات المعروفة تزول. وبالحرب كادت كل الحضارات الحديثة تشق طريقها. وبالحرب تقوم أو تتثبت ضروب التفوق التي تضع مجتمعاً ما على هامة الانسانية زمنا متفاوتا في الطول.

والحرب في الوقت نفسه هي العامل الأساسي من عوامل ذلك التقليد الجماعي الذي يؤدي دوراً عظيماً جداً في ضروب التحول الاجتماعي. انها تنتهي إن عاجلاً وإن آجِلاً بارغام الدول الأكثر انغلاقاً على الانفتاح. كالصين أو اليابان أو مراكش في مجرى القرن الأخير. وربما كانت الشكل الأقوى والأنجح في تحاك الحضارات. فهي تقطع سبيل العزلة النفسية بالقوة. انها تنشر حتى الازياء: فنستطيع أن نعرف الظافر الحقيقي في حرب من خلال طرز الألبسة في السنوات التاليَة للحرب: كانت الأزياء الفرنسية تقلد بعد نابليون، ثم الأزياء الانكليزية بعد ١٩١٨، والأزياء الامريكية والروسية أصبحت تقلد اليوم. والحرب، بكلمة واحدة، أهم أشكال انتقال الحياة الاجتماعية. فهي **صورة من صور الانتقال المُعَجَّل**.

يمكننا أن نتساءلِ اذن لم تأخر الباحثون هذا التأخر الكثيرُ عن تأسيس علمٍ اجتماعيٍّ حقيقيٍّ للحروب polémologie (٣) ولِمَ لَمْ تبعثْ أَهَمُّ ظاهرةٍ اجتماعيةٍ.

(٣) اقترحنا في مؤلف سابق ان نمنح اسم polémologie الدراسة العلمية **لظاهرة الحرب** التي تُعَدُّ ظاهرة اجتماعية، لتمييزه عن علم الحرب، ذلك العلم الذي يعلم في المدارس الحربية والاركان.

أيَّ باحثٍ على دراسة خصائصها وجوانبها الوظيفية دراسة موضوعية؟ اننا نرى منذ نصف قرن شيوع المخابر المخصصة لدراسة السرطان أو السل أو الطاعون أو الحمى الصفراء. وهي تزداد كل يوم وما أحيلى ازديادها هذا! فَلِمَ لمّا تبعثْ على إيجاد أي معهدٍ للأبحاث تلك الحربُ التي تذهب وحدها بضحايا أكثر من كل هذه المصائب مجتمعةً؟

ان العلم، كما يقول أرسطو، يبدأ بالدهشة. وأولى العقبات في سبيل دراسة علمية للحروب أنه يصعب علينا أن ندهش بهذه الظاهرة التي تبعث مع ذلك على شيءٍ من الذهول لشدة ألفتنا لها. وقد قال برودون:

«ما من قارئٍ في حاجة الى أن يقال له ما هي الحرب من الوجهة الطبيعية أو الاختبارية، فالناس جميعا يملكون عنها فكرة ما، طائفةٌ منهم لأنهم كانوا شهودها، والآخرون لأنه كان لهم علاقات كثيرة بها، وعدد لا بأس به لأنه خاض غمارها». فينبغي اذن ان نبدأ بمحاربة هذا الوضوح المزعوم للحرب. ان الوضوح يرجع في هذه الحال الى عادة نفسية تعود الى عمرنا الأكثر نضارة وفتوة. فالصبيان جميعا يلعبون في الحرب والأجناد.

والعقبة الثانية في سبيل هذه الدراسة هي أن الحرب تبدو خاضعةً لارادتنا خضوعا تاما. ان لها بداية ونهاية، وهي تنطلق في لحظة معينة، بكل ضروب الاجراءات الدبلوماسية والدينية. اننا نسوِّغها

ببواعث أعدَّها منذ زمنٍ طويلٍ مداولاتٌ ومباحثاتٌ . ان كل حرب ننظر اليها منفردة تبدو لنا اختيارية يمكن اجتنابها . ويبدو أنها لا تخضع الاّ لحكم أعملنا فيه التفكير طويلا وأنضجناه .

وهذا الاعتقاد بالذات في صفة الحروب الارادية والواعية دون غيرها هو منشأ العقبة الأساسية التي تحول دون دراستها العلمية . ونحن نريد بهذا نزعة « الوهم القضائي » . ان رجال القضاء على رغم آلاف التكذيبات التاريخية ما زالوا يتمثلون الحرب في فهمهم مشاجرةً بين افراد أو جلبة أو مقاتلة أو مبارزة . وقياساً على عقود الحقوق الخاصة أو قانون العقوبات نرى بين فترة وأخرى بعث مشروعاتٍ للمواثيق الدولية وللمحاكم وللقوانين الدولية [1] . ان بعضهم يريد ان يمنع الحرب بنوع من نظام الشرطة . وآخرون يريدون أن ينظموا الحرب – وهم يقبلون بها – تنظيما مضبوطاً على طراز قانون الشرف لدى المتبارزين المهذبين ، أو على طراز القواعد التي تنظم مباراة الملاكمة أو كرة القدم . وكذلك مشروعات التحكيم التي ما تزال لا تحوي غير إعادة طبع الحقوق الخاصة أو الحقوق الإضاعية على أكثر تقديرٍ مع مفهومها في تحكيم مُضِيعين في المنازعات كما في **مجالس قضاء البارونات**.

(Cours de Barons).

ان الأمر في هذا كله أمر الاهتمام بايجاد علاج مباشر. ولكن كيف

(١) ومع هذا ، لم يحل النشاط التشريعي والجزائي دون قيام علم للجريمة.

نشرع لأشياء لا نعرفها ؟. وهل نستطيع أن نقول : اننا نعرف طبيعة الحرب ووظائفها والادوار التي تشغلها وان لم تكن هذه المعرفة الاّ معرفة تقريبية ؟

ان هذا الاهتمام بالعلاج وإن كان مشروعا ومفهوما هو في اعتقادنا العقبة الاساسية في سبيل الدراسة العلمية للحروب . اننا نسرع في ايجاد ضروب من المعالجة قبل معرفة المرض ، ونسرع في الاعتقاد قبل المعرفة .

الفصل الاول

تاريخ فكرة الحرب

قبل أن نحاول حَدَّ «ظاهرة الحرب» وتعريفها ، وقبل أن نحلل مظاهرها المتعددة ، علينا أن نذكر النظريات الأساسية التي **وضعها** أصحابها في الحرب والاحكام الاساسية التي اطلقت عليها منذ وجد بشر، ومنذ بدأوا يتقاتلون .

١ . مجموعات الأساطير

إنَّ نظريات الكون عند الاقوام البدائية غامضة غموضاً كبيراً على وجه العموم حتى لَيتعذر استخلاص توجيهات مضبوطة منها ، ولكننا نلفي في الحضارات التاريخية أن لنظريات الكون وجملة الاساطير سمتين مشتركتين : **١) المكان العظيم الذي تحتله الحرب فيها**

٢) طابع المدح العظيم للنشاط الحربي الذي تزاوله الآلهة Dieux وتشجعه وتحميه.

وما من شيءٍ أكثر دلالة على ما نذهب اليه من معبد البانتيون

pontheon الجرماني وهو الفالهالا walhalla الذي شيّد على صورة ولائم يبتهج فيها المحاربون بعد غزوة ظافرة. ومن خلال النظرة المفعمة لأودان (odin) اله المعارك، يشرب السعداء – وهم محاطون بالغنائم والعبيد والأسرى – شراب العسل في جماجم اعدائهم ويأكلون ماشيتهم ويتقاسمون أسلابهم التي تتجدد كل يوم و «تتقطع إرباً إرباً، في فرح كبير عند العُقْبة أو تناول الحلواء في ساحة القصر الالهي» (عن بوجه du puget). واذا كانت جملة الاساطير الصينية أكثر نزوعاً الى السلم والبوذية معادية للحرب كانت الهند البراهمية على النقيض محبة للحرب حباً عجيباً. وفي الكتب المقدسة، ان هي الاّ معارك بين الآلهة والإلهات والجن والعفاريت والمردة الخ... يشترك فيها كذلك اناس وقرود وحيوانات اخرى احياناً. ان قصة هذه الاخبار تملأ كتب الفيدا Védas . والملاحم الشعرية العظيمة كالرمايانا (Ramayana) مقصور مُعْظَمُها على ذكر هذه الوقائع الاسطورية. فهي تضج بأوصاف المعارك. ان المعابد الهندوسية مغطاة بالنقوش التي تصور هذه المعارك، وان الآلهة اندرا (Indra) وميترا (Mithra)، وفارونا Varouna، ومن ثمّ براهما (Brahma)؛ وفيشنو (Vichnou)[1] وسيفا، والإلهة كالي Kali يتكسرون على عرباتهم الحربية.

(١) أي الحافظ. (المترجم).

أما الاساطير اليونانية فترينا زوس (Zeus) والآلهة يقاتلون التيتان Titane والعفاريت المردة والتيفة (tiphée) ، فكرونوس (chronos) يقاتل اوفيونة (ophionée) ، ومارس (Mars) محاطة بآلهة الشقاق والخوف والرعب ، ويتشرف بلقب «قاتل البشر» (tueur d'hommes) وبالاس (pallas) ممثّل مدرّعا ومسلحاً بالرمح والترس دوما . وآبولون (Appolon) نفسه ذو سهام قاتلة .

وان تقديم القرابين بسعة الى الآلهة مألوف في الحضارات المعروفة كلها ، قبل المعارك وبعد الظفر ، إمّا بذبح أسرى وإمَّا بترك جزء من الغنيمة للمعابد. ولقد كان المسجونون لدى الآشوريين والمصريين والأزتيك يذبحون بالآلاف في دخان اللبان وأهازيج الفرح .

ان فكرة تقديم القرابين الى الآلهة تَتَّحِدُ بالشعائر المأتمية السابقة لأوانها احياناً . وهكذا موتُ المحاربين الذين يمكن التنبؤ به هو مرسوم وممجد مِنْ قَبْلُ مثل تأليههم من بَعدُ . ويضاف غالباً الى ذلك شعائرُ استعطافيةٌ ونذورٌ وبركاتٌ وشعائرُ للتطهير تتم أيضاً لإعداد موتهم الحسن وتمهيد بعثهم .

والشيء العجاب أن شعائر المآتم التي كانت تسبق المعركة في اليابان في غابر الزمان بقيت جليةً واضحةً حتى زماننا هذا . وقد زاولها اليابانيون في حرب ١٩٤٠ : فالطيارون الفتيان المتطوعون الذين ينتحرون في طائرات الانتحار (Kamikazé) كانوا يحضرون ليلة

الانطلاقِ وليمة مأتمية . وكانوا يكتسون بالابيض لون الحداد . وهكذا كانوا يتجردون من كل ممتلكاتهم الارضية تجردا رمزيا . وكان كل واحد منهم يتسلم غداة الغد علبة صغيرة بيضاء على أرض الطيران تمثل القارورة التي يفرض أنها تحوي رمادهم .

٢ . المذاهب الدينية في الحروب

العهد العتيق . – مما يلفت النظر ان نقرر أنه حينما ولد التوحيد ، خُوِّلَ اللهُ الواحدُ صفاتٍ حربيةً ترجيحا ، من بين كل الصفات الممكنة (التي كانت آلهة الأولمب (olympe) تتقاسمها ، كفولكن (vulcain) ، وجونون (junon) ، وعطارد (Mercure) وسبرس (cérés) : فقد كان « إله الجيوش » Dieu des Armées انما تبدأ الحرب بأمر الله الصريح ولا شيء يتم من دونه : ٢١ « فلا ترهبهم لأن الرب إلٓهك في ما بينكم إلٓه عظيم رهيب ٢٢ والرب إلٓهك يستأصل أولئك الأمم من بين يديك قليلا قليلا ... ٢٣ ويسلمهم الرب إلٓهك بين يديك ويوقع عليهم اضطرابا شديدا حتى يفنوا . ٢٤ ويدفع ملوكهم الى يدك فتمحو اسماءهم من تحت السماء »[١] (سفر تثنية الاشتراع ، الآيات ٧ – ٨ – ٩) ، أو اذا

(١) هذه الترجمة العربية منقولة عن : العهد **العتيق** – سفر تثنية الاشتراع – الفصل السابع – الآيات ٢١ – ٢٢ – ٢٣ – ٢٤ – مطبعة المرسلين اليسوعيين بيروت ١٩٣٧ . (المترجم) .

ما أخذ بنو اسرائيل **أرض الميعاد** (Terre promise) فانما هذا بأمر من الله . « **١٦ لأن الرب بالنار والسيف يخاصم كل البشر ويكون قتلى الرب كثيرين**... ٢٤ ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصوني »[٢] قال الرب (سفر اشعياء ، الفصل ٦٦) .

ولكن الحرب ما كانت مناسبة للعبرانيين دوما . فحينما وُجِدَ العبرانيون تجاه جيوش أعجمية كبيرة وقوية انقطعت الحرب عن أَن تكون جذّابة وظهرت حالة نفسية جديدة يشهد بها ارمياء(jérémie) وحزقيال (Ezechiel) : لم تعد الحرب الصغيرة المحمسة التي تدور رحاها بين القبائل والمدن الصغيرة ، فقد أصبحت عذابا مرسلا من الله .

«٢٣ ها ان زوبعة سخط الرب قد خرجت وعاصفا هائجة قد ثارت على رؤوس المنافقين . ٢٤ انه لا يرجع غضب الرب حتى يفعل وحتى يتم مقاصد قلبه »[١] (سفر إرمياء ، الفصل ٣٠) .

القرآن . – يَعُدُّ القرآن الدعوة الى الاسلام بالسلاح واجبا

---

(٢) هذه الترجمة العربية منقولة عن : العهد **العتيق** – سفر اشعياء – الفصل السادس والستون – الآيتان ١٦ و ٢٤ – ص ٤٠٧ – مطبعة المرسلين اليسوعيين – بيروت ١٩٣٧ . (المترجم)

(١) هذه الترجمة العربية منقولة عن : العهد العتيق – سفر ارمياء – الفصل الثلاثون – الآيتان ٢٣ و ٢٤ – مطبعة المرسلين اليسوعيين . بيروت ١٩٣٧ . (المترجم) .

دينيا [٢] . فالحرب مثل أعلى وامر من الله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (السورة ٩ ، التوبة ، الآية ٢٩).

ان جنة محمد المشهورة ، التي ذهبت مثلا ، معدّة للمجاهدين في سبيل الله وحدهم ، للمجاهدين الذين قُتِلوا وهم يُقاتِلون :

« لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم » [٣] (السورة ٩ ، التوبة ، الآيتان ٨٨ — ٨٩) .

اللاهوت المسيحي . — لقد كان للمسيحية السلفية الأولى من الحرب موقف أصيل أصالةً لا حد لها ، فقد لعنتها واطّرحتها اطراحا كليا : « من أَخَذَ بالسيف أُخذ بالسيف » .

ان اوريجن Origène وترتولين Tertullien والقديس أنبرواز (Ambroise) رفضوا استخدام العنف رفضًا أيًّا كان هدفه . وإن

---

(٢) ليس الغرض من الجهاد الدعوة بالقوة انما هدفه تحطيم نظم الظلم القائمة واقتلاع الطواغيت من عروشهم . (المترجم) .

(٣) ترجمة المؤلف الفرنسية لهاتين الآيتين فيها اضطراب كبير (المترجم) .

عقيدة عدم العنف التي رَدَّدَها تولستوي Tolstoï وغاندي (Ghandi) هي بدع مسيحي أساسي.

ومع ذلك سرعان ما وجدت الكنيسة نفسها مرغمة على التآلف مع القوة، وأَعَدَّ اللاهوتيون الأفاضل مذهباً في التوفيق ملتزمين في ذلك ما رسمه منذ الأصول القديس بولس (Paul) من طريق مشيَّدة على الواقع. وقد أنشأ القديس أوغسطين (Augustin) الذي يشعر شعوراً تاما بالتناقض بين العهدين العتيق والجديد لاهوتا يَعُدُّ الحرب مشروعة على قدر ما تملك أن تكون التعبير عن الارادة الآلهية: «اذا ما أمر الله بالقتل بتنزيل خاص أضحى القتل فضيلة».

ولكن الحروب الصليبية بوجه خاص هي التي وضعت الحذاقة الجدلية للاهوتيين من بعد على حجر المحك. واذا ما نصب القديس برنارد (Bernard) نفسه المدافع العقلي عن الحرب المقدسة وجدنا على السواء ان شمامسة يطرون الأعمال الوحشية إطراءً لا اعتدال فيه.

كتب ريمون داجيل (Raymond d'agiles) كاهن كنيسة بوي الجامعة (puy) في موضوع الاستيلاء على القدس فقال: «رأيت أشياء تثير الإعجاب... كان يرى في الشوارع وعلى ساحات المدينة أكوام من الرؤوس والأيدي والأرجل. ولقد كان الناس والفرسان يجوسون خلال الجثث من كل الجوانب... وفي الهيكل والرواق كان

النّاس يمشون ممتطين صهوات جيادهم يخوضون في الدماء حتى ركب الفرسان وأعنة الخيل ... لقد كان عادلاً ومثيراً للإعجاب حكمُ الله الذي أراد أن يتلقى هذا المكانُ نفسُهُ دمَ هؤلاءِ الذين سبُّهم للدين نَجَّسَهُ أمداً بعيداً. انها مشاهد سماوية ... في الكنيسة وفي كل المدينة، كان الشعب يشكر الرب».

ولقد صاغ القديس توماس Thomas في نظريته الشهيرة عن **الحرب المشروعة** الشروط التي في وسعها أن تجعل النشاط الحربي مشروعاً يرضى به الله.

وهاؤم اياها: ١) سلطة الامير، ٢) سبب مشروع، ٣) الهدف الحنيف.

ان لبس هذه الشروط يفسر ضروب تردد الكنيسة حينما يتعلق الأمر باتخاذ موقف في صراع ما. ولقد كانت الكنيسة أيضاً حتى القرن الاخير ترى أن الحرب التي تدور رحاها بين متحاربَيْن لا تملك أن تكون مشروعة الاّ من طرف واحد. وهي تُصَرِّحُ اليوم بأن الحرب تملك أن تكون مشروعةً من الطرفين معاً «إِذْ يَغْلِبُ على ظَنِّ كُلِّ واحدٍ من الخصمين بعد الشورى أنَّ الحقَّ حَقُّهُ» (١).

(1) Cf. Bruneau de Solages : *Bulletin de littérature Ecclésiastique.*

٣ . مذاهب الحروب الفلسفية

الفلاسفة الصينيون . – ان الفلسفة الصينية هي الفلسفة الوحيدة التي دأبت خلال القرون على عدم مدح الحرب . وقد قال كونفوشيوس قولاً غريباً هو « ان قائدا عظيما حقا لا يحب الحرب ولا يكون محبا للانتقام ولا مُتَحَمّساً » .

وقد فاخر الصينيون ، حتى فترة حديثة ، بضعفهم الحربي ، وقبسوا اعتقادهم باستعلائهم على الحضارات الاجنبية من احتقارهم للقيم الحربية . وكان الجندي – في تدريجهم التقليدي للمراتب – في أحط درجةٍ ، قبل اللص أو قاطع الطريق .

الفلاسفة اليونان . – لا نجد في الفلسفة اليونانية موقفا اخلاقيا جديدا حقا نحو مسألة الحرب . فهم يَعُدُّونها جزءاً من نظام الله على وجه العموم . والحرب في نظر هيرقليط (Héraclite) آلة هذا النظام الإلهي لأنها تجعل الناس والآلهة اصنافا وترتبهم بطبقات : « فالحرب أم جميع الاشياء فهي تجعل من بعضهم آلهة ، ومن الآخرين عبيدا أو رجالا أحرارا » .

ومع أن افلاطون وأرسطو لا يجدان تسويغاً لها ويستنكرانها حين اللزوم يسلمان بمشروعيتها تسليما تاما سواء في صورتها الهجومية أم في صورتها الدفاعية حينما تكون ضرورية لخير المدينة . وهما يَعُدَّانها بوجه خاص حادثا ايجابيا لا نزاع فيه : فالمدينة قبل كل شيءٍ كائن عضوي دفاعيّ وقلعة جماعية .

فلاسفة العصر الحديث . كنت . – لئن نتج استنكار النشاط النزاع الى الحرب من « الاوامر القطعية » بالضرورة فإن كنت لم يجهل مع ذلك الطابع المجرد لاستنكار كهذا ، وقد شغل بوجهٍ خاصٍ بتعيين الشروط العملية لمؤسسة السلم (٢) . وفي **مشروع للسلم الدائم** ، يعين عددا من المبادئ التي تقترب كثيرا من تلك المبادئ التي صُدِّرَ بها **ميثاقُ ولسن لعصبة الأمم** . وهو يقترح فيما عدا ذلك اخضاع قرار الحرب أو السلم لاستحسان كل مواطن . وبعد أن بيّن كنت ان فكرة سلم دائم كانت تخفي كل المتناقضات المتعلقة بفكرة الأبد ، استنتج مع ذلك : « أن السلم الدائم غير قابلٍ للتنفيذ ، إنما يمكن أن نقترب منه اقتراباً لا حَدَّ لهُ » .

هيجل . – يُعَدُّ خالع العذار في تسويغ العنف والحرب بوجه عام . يجوز أن نسوّغ لهيجل بعض أقواله المغالية إذا اعتبرنا أنه ما فتئ يُقرُّ بظاهرةٍ دون أن يستحسنها . وقد ظَلَّ أيضاً يدافع عن الطابع « التمديني » للعنف . فهو مناسبة تحقق فيها الدولة شعورها الأسمى . ونابليونَ الذي كان مولعا به قبل هزيمته كان في نظره يُمَثِّلُ « الفكر الشُّموليَّ تمثيلاً كاملاً » .

وان الحرب في نظره شر لا بد منه يبلغ نهايته بتحقيق « الفكر المطلق » . يقوم مذهب هيجل السهل في القدر على الانحناء السهل

(٢) السِّلْمُ بالكسر المُسَالِمُ والصُّلْحُ ويفتح ويُؤَنَّث والسَّلام والإِسْلام ، وبالتحريك السَّلَفُ والاستسلام وشجرٌ... (القاموس المحيط) .

للضرورة المتجسدة بالظافرين وعلى توفر ذوق عاطفي للحلول المأسوية.

يوسف دومتر. – لقد بحث فلسفةً للحرب تكاد تكون اتباعية الآن. وقد أضحت بعض عباراته الغنائية المغالية مشهورةً. وأنا لنرى نظرياته تُبْعَثُ بين الفينة والأخرى. وان جوهر مذهبه كامن في العبارات التالية:

«حينما تفقد النفس الانسانية لولبها بالميوعة وقلة التصديق والرذائل المفسدة الخلق التي تتبع إسراف الحضارة، لا يمكن إلاَّ أن تُغْمَسَ في الدم... فالثمرات الحقيقية للطبيعة الانسانية والفنون والعلوم والمشروعات الكبرى والتصورات العليا وفضائل الرجولة تتعلق بحالة الحرب بوجه خاص... حتى ليمكن أن يقال: إن الدم سماد هذا النبات الذي يطلق عليه اسم العبقرية. وثمة شيء غامض لا يمكن تفسيره في القيمة العجيبة التي قرنها الناس بالمجد العسكري... فالحرب اذن آلهية في نفسها ذلك بأنها قانون العالم... ولا يشعر الانسان بيد الله بقوة مثلما يشعر بها في الحرب».

نيتشه. – تَعَوَّدَ «محبو الحرب» أن ينادوا به. والواقع آثاره يزينها الكلام الذي فيه مدح للحرب، وثناء عليها: «عليكم ان تحبوا السلم حُبَّ وسيلةٍ للحروب الجديدة وأقصرَ سلمٍ أكثر من اطوله... تقولون: انما السبب المشروع يُسَوِّغُ الحرب، وأقول لكم: انما الحرب الشديدة تُسَوِّغُ كل سبب... يا إخواني في الحرب». وتبدو له الآلام التي تولدها

الحرب مدرسة بارعة : «لكي تكون المحنة منتجة ، يجب ان تكون الحرب ضاريةً ومجردة من الشفقة . فالفضائل الوحيدة هي البأس والقسوة والجرأة والحيلة والذكاء ، وبكلمة واحدة القوة» . وتوق القلب الى السعادة يمنع الانسان من أن يكون عظيماً ، فعليه أن يعرف العذاب والموت : «قامت الحرب والشجاعة بأشياء اعظم مما قام به حب القريب ... فالحرب هي المحنة الجيدة ، والمسابقة النزيهة العادلة الوحيدة ، واذا ما قلنا : انها هي الشيء الوحيد الذي يمكن تصوره ، قلنا حقا» . انما يجب ان نعود باسم الغريزة الى الحرب التي يحاربها العقل ، لأن «الغريزة تدفع الانسان الى كل ما يجعل حياته حديداً» .

ومع ذلك ان ابهام لغة نيتشة الغنائية هو غالبا ذلك الذي نستطيع أن نتساءل معه : ألم يكن نيتشة يتكلم عن المعارك المعنوية تكلمه عن المعارك المادية حين تمجيد الحرب ؟ فأماره تُسَدِّدُ أيضاً ضرباتٍ مرعبةً لروح القطيع المُدَوِّية التي يُفْصِحُ عنها بعضُ الآثار الألمانية القومية الشاملة .

النافون للحرب . – ينتمون الى فئتين . فيأخذ بعضهم على مُسَوغي الحرب باذلين جهدهم في أن يبينوا أن نصيب التخريب والنكوص يتجاوز حد الموازنة الايجابية . والآخرون كإراسم (Erasme) ورابليه (Rabelais) بل الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر بوجه خاص – ما عدا جان جاك روسو – يبذلون جهدهم في استئصال ما في الحرب من قداسةٍ بابدائها مغامرة فيها تتسابق السخريّة

والسخافة. فهم يُظْرِفون بها (١) إظرافاً فيه قسوة عليها وشعور بالمرارة قبل أن يتوطد فن التهكم المُرِّ هذا في عالم الفكر الفرنسي.

اننا نعرف نظرة فولتير «**الشاملة**» المشهورة الى الحروب: «ساعة أكلمكم ثمة مئة ألف مجنون من نوعنا يلبسون القبعات يقتلون مئة ألف حيوان آخر تسترهم العمائم في سبيل بضعة أكوام من الوحل عظيمة كأعقلكم ... ولا يتعلق الأمر الاّ بأن نعرف أينتمون إلى رجل اسمه **سلطان** أم الى آخر اسمه – لا أدري لماذا – قيصر (César) ... وَمَا مِنْ حيوانٍ من هذه الحيوانات قَدْرَ أَي الحيوانَ الذي يُذَبِّحُ من أجله بعضُهم بعضاً».

٤ . المذاهب الاخلاقية والحقوقية

ما من مجتمَع مهما كان بديئاً دون مذهب حقوقي مضمر وكذلك ما من حربٍ دون قواعد غامضة أو واضحة يُصَدِّرُ بها بدءُ الأعمال الحربية ونتائجُها.

عصر روما القديم. – يبدأ حق الحرب لدى الرومان في الفترة القديمة منذ البداية. وهو شديد التمسك بالأشكال وثمة مجمع خاص للقسيسين (Féciaux) يسهر على تطبيق القواعد الصارم. والشيء الجوهري اعلان الحرب على حسب الشعائر الدينية، وليس هاما أن يعرف سبب قيام الحرب وموضوعها. واذا ما احترمت أشكال

(١) يذكرونها بظرْفٍ (لسان العرب).

اعلان الحرب احتراما دقيقا كانت مشروعة . وإلاّ فإن عدم المحافظة على الشعائر الدينية يجعل منها ظلما ، فتصبح مشؤومة ومحكوماً عليها بالخيبة والشقاء .

لقد كانت القاعدة تقتيل المغلوبين وبيع الناجين من الموت عبيدا .

قتّل سيل (Sylla) أربعة آلافٍ من الطليان القدامى المحبوسين في ساحة مارس مرتاح البال . وفي (Rheggium) أُمِرَّ السكانُ جميعًا على حد السيف . وأثناء الحروب القرطاجية أَمَّرَ الرومانُ الذين استولوا على معسكر آسد روبال (Asdrubal) كلّ القرطاجيين على حد السيف وقتلوا كل مساعديهم الغاليين الذين كانوا ينامون سكارى منطرحين على القش .

أما البلادُ التي افتتحتها روما فقد كانت تُخْضِعُها على درجات متنوعة . وكان حق الفتح المطلق ينتج من التسليم الذي تشهد عبارته بأن المغلوب كان يذعن عن طيب خاطر : « انني أهب الشعب الروماني نفسي ومدينتي وأرضي والماء المهراق وآلهتي الخاصة ومعابدي وأمتعتي وأثاثي وكل ما يتعلق بالآلهة من أشياء » .

كان الرومانيون يحافظون في المعاهدات على روحٍ حقوقيةٍ شكليةٍ جداً ودقيقةٍ. ويقول فيكو : « كانوا يحافظون على أحكام البطولة باحترام دقيق للكلمات (Religio verborum) ... ومن العبارات التي عُقِدَت فيها المعاهدات ، نرى المغلوبين يُحَمَّلُونَ ما لا يطيقون على نحوٍ يُرثى له ، أو يَحُلُّونَ حَنَقَ الغالِبِ لحسن الحظ » .

.كان القرطاجيون في هذه الحالة الأولى : فقد كانت المعاهدة التي أبرموها مع الرومان تؤكد لهم حفظ حياتهم وأموالهم ومدينتهم . وكانوا يفهمون من هذه الكلمة الاخيرة مدينتهم المادية ، ومبانيهم ، وفي اللغة اللاتينية (Urbs) . ولكن حينما استعمل الرومان في المعاهدة كلمة civitas التي تعني اجتماع المواطنين أو المجتمع ، غضبوا من أن القرطاجيين أبوا أن يخلوا ساحل البحر للسكنى في الاراضي من بعد ، فأعلنوا انهم عصاة وأخذوا مدينتهم وحوّلوها رمادا . ولم يعتقدوا قط – وهم على حق البطولة – بأنهم قاموا بحرب ظالمة .

حق الحرب في التوراة . – نستطيع أن نعتبر هذا الحق في تعبيره المناسب لدى ابن ميمون (Maimonide) ، وإن كانت وجهة نظره متأثرة بداهةً بالفترة التي عاش فيها أي بالحروب الإضاعية والحروب المقدسة التي كانت تندلع بين الدول النصرانية والاسلامية من فترة الى أخرى .

فعلى كل العالم في حـالة الغزو أن يحارب . وعلى النقيض من ذلك يقوم بالحروب العدوانية جنود متطوعون . وهكذا يبحث الفيلسوف في العصور الوسطى قبل الأوان مسألة «المستنكفين عن الخدمة العسكرية » .

يقول ابن ميمون : «ثمة نوعان من الحروب : الحروب الضرورية والغزوات الإرادية . فالاولى للدفاع عن ارض الوطن ، والاخرى لتوسيع الحدود . يخوض الملك الحرب في الحالة الاولى بمحضِ إرادته ،

وعليه في الحالة الثانية استئذان . المحكمة العليا عند اليهود » . حتى في هذه الحالة لا يكون المواطنون ملزمين جميعاً بأن يشاركوا في المعارك . وثمة اسباب عديدة للاعفاء ذكرها سفر تثنية الاشتراع . فيعفى الذي غرس كرمة أو بنى بيتا أو تزوج من امرأة جديدة من الخدمة الحربية لمدة سنة . ثم ان على المبشرين بالحرب قبل انطلاق الجيش أن يطوفوا بالصفوف ويدعوا الى الانصراف عن الحرب كُلَّ أولئك الذين يخافون أو لا يطمئنون الى عدالة المعركة .

ويجب أن تبدأ الحرب بمحاولة توفيق تبدو شرطاً أو إنذاراً على الأصح وتشمل كذلك انواعاً من الشروط الدينية الدنيا : « واذا تقدمت الى مدينة لتقاتلها فادعها اولا الى السلم [1] » (سفر تثنية الاشتراع ، الفصل العشرون ، الآية العاشرة) .

واذا ما اندلعت المعركة وجب أن تحترم قواعد من اللَّيَانِ : « وأما النساء والاطفال وذوات الاربع وجميع ما في المدينة من غنيمة فاغتنمها لنفسك وكل غنيمة اعدائك التي اعطاكها الرب الهك [2] » (سفر تثنية الاشتراع ، الفصل العشرون ، الآية الرابعة عشرة) ، ثم اذا

(١) هذه الترجمة العربية منقولة عن : العهد العتيق – المجلد الاول – ص ٣٢٠ مطبعة المرسلين اليسوعيين بيروت ١٩٣٧ (المترجم) .

(٢) مصدر الترجمة نفسه . وترجمة الآية كما أوردها المؤلف : « ولا تقتلوا امرأةً أو طفلاً في حالة نهب مدينةٍ فتحتموها حرباً » (المترجم) .

ما قبلت شروط السلم فلا عدوّ يمكن أن يقتل [٣] (سفر تثنية الاشتراع ، الفصل الثاني والعشرون) .

العصر الوسيط . — بعد فترة من الفظائع التي لا لجام لها ، تكونت رويداً رويداً — تحت تأثير الكنيسة المستمر واللازب — حقوق عامة أحسنت الى الناس احسانا لا ريب فيه على الرغم من خرقها غالبا . والحقوقيون والاخلاقيون — دون أن يشغلوا انفسهم بأسباب الحروب أو خصائصها أو طبيعتها — يُعِدُّونَ قوانين تميل جميعا نحو التخفيف :

لا ريب أن أهم شيء تأسيس هُدنة الله (Trêve de Dieu) . ولما قُرِّرَتْ هذه الهدنة في القرن الحادي عشر ، منعت اولا من تناول السلاح من مساء السبت الى صباح الاثنين ليتسنى لكل شحص ان يقوم بواجبه الرَّبَّانيِّ أمام الله . ثم مُدِّدَتْ وبدأت منذ الخميس . وقد أصبح تعليق الغزوات من بعد مطلوبا طوال الفترة السابقة لعيد الميلاد والصوم الكبير وعيد الخمسين أو العنصرة . وكان خرق الهدنة يجر على صاحبه الحرمان من الجماعة .

فالحرب الصغيرة التي تدور رحاها بين جماعات صغيرة ذات لغات حضارات متشابهة مناسبة لايجاد الاتفاق . لذلك نرى ان تشريع الحرب قد تطور في فترة اوروبا الإضاعية . فتنزع الحرب الى أن تصبح

---

(٣) لم أعثر لهذا المعنى على ما يقابله من آية في (العهد العتيق) في الفصل الثاني والعشرين من سفر تثنية الاشتراع الذي أشار اليه المؤلف . (المترجم) .

لعبة أمراء ورياضة خطرة يمارسها النبلاء وحدهم ، فترى القوم يدورون فيها كثيراً ذاهبين ذات اليمين تارة وذات الشمال تارةً ويقتتلون قليلا جدا . وثمة مجموعة من القواعد توجهها ، وترمي الى جعلها لطيفة ومسرحية معا حتى تبلغ تلك اللُّوم (١) المحكمة التي تُضْرَبُ ضرباً مدوياً عظيماً دون أن يحدث أَلَمٌ كَبِيرٌ .

ماكيافلي . – يعرف كل العالم العبارة التي توجز نظرية ماكيافلي ايجازاً : « تمسي كل حرب مشروعة منذ أن تصبح ضرورة . » . وهو غالبا من انصار « الحرب الواقية » التي يحكم بأنها وحدها معقولة حقا .

أوضح ماكيافلي نفسه هذه الضرورة المبهمة قليلاً ما . فهو يقول : « على الانسان ان يدافع عن وطنه اما بغير شرف واما بشرف ، فكل الوسائل صالحة للدفاع عنه . » وللدفاع عن الوطن دفاعا جيدا ، يَجب بدءُ القتال غالبًا : « حينما كان الرومان يواجهون عن بعدٍ العقبات (المقبلة) ، سرعان ما كانوا يتداركونها ولا يدعونها تتفاقم أبدا لاجتناب وقوع حرب . وكانوا يعرفون ان الحرب لا تجتنب ، ولكن تأخيرها هو دوماً لصالح العدو » .

اما ما يتعلق بقواعد الانسانية فيبدو ماكيافلي واضحاً بصددها :

---

(١) واللأْمَةُ الدرع وجمعها لُؤَم مِثل فُعَل ، وهذا على غير قياس ... واللأمة السلاح كلها ... الجوهري : اللأم جمع لأمَةٍ وهي الدرع ، ويجمع أيضاً على لؤم مثل نُغَر على غير قياس كأنه جمع لُؤْمة ... ولأمة الحرب أداته ... (لسان العرب) .

«فالأمير... لا يستطيع أن يمارس كل الفضائل بلا عاقبة لأن فائدة الحفاظ على نفسه ترغمه غالبا على خرق قوانين الانسانية والاحسان والدين».

لم يعد ثمة من نظريات ايجابية في الحرب بعد ماكيافلي حتى بداية القرن التاسع عشر اذا ما استثنينا مذاهب اللاهوتيين أو الحقوقيين.

كلوزفيتز (Clausewitz). – كلوزفيتز هو محلل للحرب وغاياتها ووسائلها وكل مظاهرها وله فيها مشاهدات تكاد تصيب كبد الحقيقة. وهو مع ذلك أحد الوجوه التي يشار اليها بالبنان في القرن التاسع عشر، يشاركه في هذا ماركس وداروين. وما يُسوِّغُ الحرب لعيني العقل في نظره إنما هو سعة القرابين التي تقام من أجلها: فينبغي اذن أن نقوم بها جميعا. والنتيجة أن العدو هو الذي يحكم لأنه ينبغي للانسان دوما أن يكون مستعدا لتخطيه في القربان. وهو يقول: لا غنى عن وجود طبقة محاربة الاّ أنه لا غنى أيضاً، على صورة أشد، عن تكوين جنود «لأن الروح العسكرية ربما تبقى بتقاليد أو تشريع، إلاّ أن الحرب وحدها قادرة على ايجادها. «وَتَصدُّرُ السياسةِ أَحَدُ مبادئ كلوزفيتز الاساسية: فالجيش ان هو الاّ آلة في نظره. «والواقع ان الحروب... ان هي الاّ تعبير السياسة أو ظاهراتها. ولا معنى لارادة اناطة وجهة النظر السياسية بوجهة النظر العسكرية لأن العامل السياسي هو الذي قرر الحرب. فهو الذي يكوّن القوة المفكرة: والحرب انما هي آلته وليس العكس. فاناطة وجهة النظر العسكرية بوجهة النظر

السياسية هي اذن الممكن الوحيد » . فأهمية الجيش لا حد لها لأنه آلةُ السياسة وحدُّ الحياةِ الاجتماعية : « تنمو الحرب في حِجْر سياسة الدولة وتكون مبادئها كامنةً فيه كما تكون خصائص الفرد الخاصة كامنة في الجنين » . اذن « ينبغي القيام بالحرب بكل ما تستطيع الامة من قوة » . وهكذا تتَّضحُ خطوطُ الحربِ الكليةِ لدى كلوزفيتز : ولذلك تماما « تكون الحرب فعلاً عنيفاً مدفوعاً الى أقصى حدوده ... وابتداء القتال بحظوظٍ متساويةٍ بلادة خطرة ... ان الميل الى تدمير العدو لاصق بفكرة الحرب : فالظفر مرادف الإعدام » ...

٥ . النظريات الاجتماعية

انها تعترف بمبدإٍ عامٍ بأن الحرب ظاهرة « سوية » لحياة الشعوب ، بالمعنى الدوركليمي للكلمة . وتتمايز مع ذلك بطريقتها في تصور المستقبل : وفي الجملة ، يعتبر بعضها – ونطلق عليه اسم المذاهب **المتفائلة** – ان الحروب نتاج بناءٍ اجتماعيٍّ يُؤْمَلُ وَيُتَوَقَّعُ أن يتخطَّاهُ الناس يوما ، بينا يرى بعضها الآخر – المذاهب **المتشائمة** – في الحروب ظاهرةً أبديةً ، ظاهرةً تعود بالنفع غالباً .

المذاهب « **المتفائلة** » . – **سان سيمون** . – يترقب نهاية الحروب من العصر الصناعي . « فالصناعة عدو الحرب ، وكل ما نربح قيمة صناعية نخسره قيمة عسكرية . « وقد كانت الشعوب تقاتل في العصور القديمة وتملك عبيداً بعد أن تضع الحروب أوزارها لإقاتهم . ولكن

الشعوب الحديثة تنتج بنفسها. اذن تتعلق حالة الحرب أو السلم بالصناعة. والنظام الصناعي الذي يتغذى فيه الافراد بالانتاج في سبيله الى أن يخلف، بتطور تاريخي، النظام العسكري أو النظام الإضاعي القديم؛ إذن كانت وسائل العيش تقوم على السرقة بعض القيام.

أوغوست كونت. — كان مُساعدَ سان سيمون أولا، الاّ أنه دفع من بعد نظرياته دفعةً أبعد كثيراً إِذْ عمل على تنميتها. وهو يُؤَكِّدُ أيضاً التمييز بين الحالة العسكرية والحالة الصناعية. فليس للنشاط الانساني الاّ هدفان: الغزو أو التأثير في الطبيعة أي الإنتاج، «فكل مجتمع إن لم يُنَظَّمْ تنظيماً واضحاً في سبيل تحقيق الواحد من الهدفين أو الآخر لا يكون إلاّ جمعية فاسدة تفقد مقومات الوجود. وقد كان الهدف العسكري هدف النظام القديم والهدف الصناعي هدف النظام الجديد». وهو يقيم قانوناً في تطور الحرب موازياً لـ «قانون الاحوال الثلاث»: ١) الحرب لنفسها وبحاجة: فلم تكن المجتمعات البديئة لتستطيع ان تتعلم النظام في أية مدرسة اخرى غير مدرسة الحرب، وقد سَهَّلَتِ الحربُ العبوديَةَ وبها سَهَّلَتِ الصناعةَ، فكانت النزعة العسكرية اذن لا غنى عنها ولا يمكن تجنبها أيضاً ٢) وهي تبقى ولكنها تبقى منوطة بالنظام الصناعي الناشىء وتنقص كلما نمت الحياة الصناعية (يعلن كونت ان الحروب الحديثة أقل قتلا من الحروب الماضية، ذلك أنها — وهي تَزْدَادُ وضوحاً — لا يشارك فيها مجموعة السكان مشاركة حقيقية، وهكذا يرى في حلول الجيوش الدائمة محل

الجيوش الإضاعية تناقص الروح العسكرية) ، ٣) والتصنيع ، في نهاية الأمر ، آتٍ على الغاء الحروب .

ولا نستطيع ان نقرأ هذه التنبؤات التي كَذَّبَتْهَا الواقعاتُ اليومَ كُلَّ التكذيب كتنبؤات سبنسر دون أن نتهكم تهكما ثقيلا . ويبدو ان الصناعة في ايامنا وَسَّعَتِ الحربَ وطوت بين جنحيها كل العالم . وقد اصبحت الصناعة خادمة النزعة العسكرية . وهي تزداد كل يوم خدمة للحرب والاعداد لها .

هربرت سبنسر. — يلاحظ سبنسر ، ككونت ، الخدمات التي تؤديها الحروب في تكوين العالم والشرور التي تجلبها اليوم في الوقت نفسه . إن كلَّ شيء ينزع إلى هذا الهدف . فالذين لا يحاربون في مجتمع عسكري مرغمون على توفير حياة المحاربين وبذلك يخدمون الحرب ايضًا . والنموذج العسكري ، وإن يكن أدنى من نموذج المجتمع الصناعي ، كان ضروريًا ايضاً لأن السلاح سبق الأداة ولم يكن ثمة اداة دون سلاح في الاصل وسلكُ الناس في دول ، أي في مجتمعات واسعة ، لم يقم الا بالقوة والتدرج ولولا استعمال القوة هذا لبقي الانسان في القبائل الصغيرة البدوية الرحالة بدلاً من المجتمعات الواسعة الحديثة الملائمة لتطور العلوم والصناعة .

وثمة ايضاح مميز تحظى به نظرية سبنسر نعرضه في ما يلي : يبقى للحرب اثرها في اهلاك المجتمعات الضعيفة واخراج الضعاف من المجتمعات القوية ما دامت الحضارة في توحشها وطفولتها ، ولكن بعد

متضي درجة ما من التطور اصبحت الحرب مصدر تأخر لان ثمة نزوعاً الى اصطفاء احسن الناس بنية واقواهم وتعريضهم للجدث وترك احط الافراد اجساماً للنسل».

تارد. – ان الحرب في نظره «طريقة مأسوية للجدل الاجتماعي لن يكتب لها الخلود». وهي نتيجة صراع بين قياسين جماعيين: «فالارادات المتجمعة في أمتين تنتهي بتجسدها في جيشين يسيران احدهما نحو الآخر». ويكفي شرط واحد حتى تستحيل المخالفات حرباً: «حينما تُطرح مسألة على عدد ما من الناس في آن واجد، كل اولئك الذين يشاطرون الرغبة عينها يشاطرونها معا ويكتسبون الشعور بهذه الهوية، بهذه الصيرورة في آن واحد».

لكن المعارضة في حدّ ذاتها لا تخلق شيئا: «ليذكر الذاكرون معركةً عظيمةً ولّدت تقدمًا فاصلاً في الفن العسكري!... ليس التقدم في كل الميادين ثمرة النضال أو المباراة أو المباحثة بل ثمرة سلسلة الافكار الممتازة التي ظهرت في أدمغة بارعة وأُعِدَّتْ لزمانها: فهو ثمرة التلاؤم لا المعارضة». وليس تقدم الفن العسكري نتيجة «المعارك بل نتيجة الاختراعات الصناعية أو الفنية عن وجه الخصوص أو الاختراعات الاخرى التي لم تنتج الحرب منها شيئا ولم تيسرّها ولم تدفع بها قُدُمًا بل عملت على إخفاقها وعلى إفنائها غالبًا واقتصرت على الإشارة بتطبيقها على التسلح وفن التعبئة هنا وهناك... وقد ابتلعت المعارك المختصة بالسفن الحربية أساطيل لا تعد ولا تحصى في العصور

القديمة والوسطى دون أن تغير طراز السفينة الرومانية ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف » . ولكن الحرب نفسها « تطورت كما تطور العمل على وجه التقريب أكثر من الحب والفنون الجميلة وأكثر من الجريمة بمقدار كبير. فكل شيء يتغير فيها من فترة الى أخرى : الوسائل المستعملة والاهداف التي تسعى اليها » .

ماركس والماركسيون . – اذا ما حاولنا تلخيص نظريات ماركس وتلامذته التي تتعلق بالحرب وجدنا باديَ بديّ الفكرة الاساسية التي كانت حجر الاساس في دعوة غراكشو بابوف (Gracohus Babœuf) : « لم يكن ثمة الّا حرب خالدة ، تلكم هي حرب الفقراء على الاغنياء » . وسوف تكون هذه الحرب نضال الطبقات الدائم .

ماكيافلي وضع آخر للماركسية ازاء الحروب هو تبني نظرية مكيافيلي في **حرب التحويل** (Diversion) المرتبطة بفكرة **الخداع** mystification الفولتيرية . فالطبقات الموجّهة تحول الشعب عن نضال الطبقات بأن توحي اليه ضروباً من الهوى الوطني أو الديني . ولقد كانت مدرسة ماركس اذ ذاك عالمية ومعادية للنزعة العسكرية خلافا لبرودون .

ينضاف الى هذه الاتجاهات تفسير لأسباب الحرب ، المألوفة في المذاهب الاشتراكية وهو أن **التناقضات الاقتصادية** (Antagomimes économiques) أصل ضروب الصراع المسلّح .

وهذه وجهة نظر من أهم وجهات النظر لأنها تبين احد الجوانب الاساسية التي لا يمكن ان تنفصم في ضروب الصراع المسلح ولأنها تسلط نورها عليه (١).

المذاهب «**المتشائمة**». — نجد بين ممثليها الاصليين مسوّغين حقيقيين يتنبؤون عن رضى بأن الحرب سوف تنْمُو وَتَجْمُلُ بِلا انقطاعٍ. نضرب مثلاً ر. س. **شتاينمتز** (R.S. Steinmetz) المدافع «العلمي» عن الحرب: ففي نظره، لن تزول الحرب، ويجب أن لا تزول. ويكاد شتاينمتز يؤول هيغل: «يُمْنَحُ النصرُ على حَسَبِ تركيبِ الشعوب الداخليِّ ساعةَ الحربِ». والحرب هي الاسلوب الاساسي في الاصطفاء الجماعي فهذه الصورة للاصطفاء هي خاصة الانسانية: «الحرب هي حجر محك الأمم. وهي – ان شئتم – تثير العطف على الضعفاء، ولكنها تجعل مكانا للأقوياء».

واذا ما أتينا الى **ايزولة** (Isoulet) ألفيناه يريد أن يبرهن على أن القوة مرادفة للفضيلة، فالضعفاء أو الذين لاخلاق لهم يهلكون في الحروب. **فالحرب اذن أخلاقية بالضرورة**. وقد عيّن عامل التفاعل والاشتراك تطور الكائنات العضوية ونمو «الحس الاجتماعي، والعلمي والصناعي والاخلاقي لدى الانسان».

---

(1) Cf. Fr. Engels, *Anti-Dühring*, ch.II, III et IV.

ان اعجاب جورج **سورل** Georges Sorel بالحرب ، أو على وجه ادق بالنضال – وكذلك الأمر اعجاب نيتشه (Nietzsche) – أملاه عليه إملاءً كبيرًا بغضُهُ للأخلاق المسيحية التي حكم عليها بأنها مخالفة لطبيعة الحياة والاحياء. يمدح جورج سورل صراع الكتل والحرب المدنية التي تقتلع الرأسمالية من جذورها والحرب المزمنة التي ستجعل النصرانية أثرا بعد عين. وهو يعتبر أن جوهر مجتمع من المجتمعات أساطيره ، وتستخدم هذه الاساطير بوجه خاص في غرس الروح المحبة للحروب في الكتل. وليس ثمة فرق عظيم بين الحرب المدنية والحرب الاجنبية : « فاضراب عام يمكن ان يصبح معركة نابليونية بسهولة ».

ان **غمبلوفيتز** (Gumplowicz) يبلغ غاية النزعة الحربية النظرية ، فمذهبه ان هو الآ نداء صارخ الى الحرب : « ان الخطأ الكبير الذي يرتكبه علم النفس الفردي انما هو افتراضه أن الانسان يفكر. إنّ أصلَ تفكيرِه في البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ». وهو يفترض بغضا لاصقا خالدا في علاقات جماعة من الجماعات بالأخرى : أو نضالا مميتا لا يمكن اجتنابه قائما بين الجماعات.

وتنشأ كل الصور الاجتماعية والمؤسسات من الحرب. وأصل الدول انما هو اجتماع الجماعات الظافرة بالجماعات المستعبَدة فيصبح الظافرون الهيئة الممتازة الموجِّهة. اما أصل الحقوق فانما هو مجموعة من القواعد التي تأمُرُ بها الجماعةُ الموجِّهةُ للسيطرة على الجماعة المستعبَدة

واستغلالها. وينجم النظامُ الطبقيُّ والتفاوتُ الاجتماعيان من أن الظافرين يصبحون الطبقة الحاكمة النبيلة. تنتج كل قواعد السلوك الالزامية اذن عن الحرب وهي عائدة لها.

ولنضف الى ضروب التسويغ هذه ضروب تسويغ علماء الاجتماع المشربين بمذهب القدَر والفظاظة «الحيوية» بتطبيق المبادئ الداروني للنضال في سبيل الحياة ولإسقاط غير الأهلين. وهؤلاء جميعا لودنتك (Le Dantec) وكنتون (Quinton)، الخ... يُغَلِّبُونَ ظاهِرَاتِ الاعتداء على ظاهرات التعاضد وتقسيم العمل اللذين يؤديان دوراً أَعْظَمَ في الحياة الاجتماعية بكل تأكيدٍ[1].

---

(١) ان العرض التاريخي الذي تتضمنه هذه الصفحات يبعد من الكمال. فهو لا يشمل - الاّ اكثر الافكار والمؤلفين تمثيلا. انظر كتابنا Les guerres pages 38 à 109, Payot, éditeur.

الفصل الثاني

ظاهرة الحرب

(تحديد وتعريف)

اعلم أن موضوعنا ها هنا ينحصر في اعطاء تعريف وفي لـ « ظاهرة الحرب » . وما على هذا التعريف إلا أن يُتِيحَ لنا تحديدَ ميدان الابحاث . وان تعريفا يستنفد موضوعه : « الحرب انما هي ... » يفترض معرفة كاملة بهذه الظاهرة . ونحن بعيد من هذا . لذلك سوف نقتصر على ميز السمات التي تميّزها .

اننا نميل ميلا عاما الى ادخال الحرب في مجموعة ظاهرات المقابلة والنضال ، والى عَدِّها حالة خاصة من النضال العام . ولكن حتى عُمُومُ هذه الفكرة يجعل المشكلة مظلمة بدلا من أن يسلّط عليها الأضواء . واذا ما انطلقنا من الحرب إلى النضال العام ومن امتداد الى امتداد انتهينا الى أن نضع سيما « النضال » على اعمال تعج بالكثرة وتضج بالتنوع . وسوف يقال : ان الهضم نضالُ المعدةِ الأغذيةَ ، وان الحرث نضالُ الفلاحِ الارضَ ، وان البحث العلمي نضال قائم بين الطالب

والمعرفة . وان كلمة « النضال » كذلك تختلط بكلمة الجهد كثيرا . وما يمنع هذا الاختلاط مرتبط بطبيعة العدو. والتمييز الاول الذي يمكن ان نقوم به بين الحرب والصور الاخرى للنضال انما هو ان هذه الصور يمكن ان نطويها في نضالِ أشياء لا حركة ولا حياة فيها أو خصومٍ لا يملكون وعيا ولا شعوراً. اما الحرب فهي مخالفة لذلك لأنها تفترض عدوا نشيطا حيا ومنظما . وهي تتضمن تبادل عمل ارادي . وقد عملت النظريات الدارونية واللاماركية كثيرا لاشهار هذا النوع من الاختلاط ، لأنها تواجه معا – وتكاد تكون مواجهتها دون تمييز – كل الموانع التي ينبغي أن يجتازها نوع من الانواع للاستمرار.

ولكن اشكال النضال والمقابلة لا يحصيها الاحصاء ولا يستقصيها الاستقصاء ، ولهذا يجب أن تكون فكرة الحرب محددة تحديدا واضحا بالاضافة إلى كل اشكال التناقض المعروفة أو القابلة للتصور. وتقوم الطريقة الصحيحة لاجتناب كل اختلاط على التحديد والتقسيم.

ويظهر أن صفة الحرب التي تبعث على الانتباه هي طبيعتها كظاهرة جماعية. وفي هذا المعنى انما ينبغي أن تمايزَ وتُفْصَلَ تمايزا وفصلا واضحين عن افعال العنف الفردية . ولكن أو يكفي ان نضيف وحدة أو وحدة اخرى ، أو أثنتين أو ألفا أو عشرة آلاف حتى ينقطع نزاع ما من ان يكون فرديا وحتى يصبح جماعيا ؟ ان كل شيء يتعلق بالظروف والتقدير الاعتباطي قسراً . وثمة بعض المؤلفين الذين يفكرون بأن عدم الوضوح هذا يبين مدى سهولة تقريب الحرب من الجريمة الفردية لأن

بينها سلسلة من الاشكال العابرة [١] . فينبغي لنا إذن أن نقتصر على ميزانٍ مرنٍ جداً في سعة الجماعات التي تتلاقى في نزاع حربي . وقد تكون هذه الجماعات عظيمة جداً كما في حالة الامبراطورية الرومانية أو الصين القديمة أو الدول العظمى اليوم ، ولكنها قد تكون ايضاً صغيرة جدا دون أن تفقد ضروبُ نضالها المسلح لذلك طابعَ الحروب بالمعنى الدقيق للكلمة ، لأن الحرب تتميز عن النضال العامّ والجرائم الفردية بصفتين هامتين أخريين. **عنصر شخصي** ، **وهو القصد** ؛ **وعنصر سياسي** ، **وهو التنظيم** .

والحقيقة ان الحرب في خدمة مصالح جماعة سياسية على حين ان العنف الفردي هو في خدمة مصلحة خاصة . انما علينا ايضا ان نقبل فروقا . والفرق الاول هو ان حدود الحقوق الخاصة والحقوق العامة تغيرت غالبا . فالحرب ، في بعض البلاد كاليابان قبل استسلام ١٩٤٥ ، كانت تُعَدُّ ، عَدّاً نظريا على الأقل ، من شؤون الحقوق الخاصة التي تهم دولة ملكية يخدم مصالحها بقيةُ الأمة . فالزي ، كما كان يقال فى القرن السابع عشر إنما هو «خلعه الملكِ La livrée du Roi . والفرق الثاني هو أنه يصعب غالبًا أن نميز **غايات** الحروب من **دوافعها** . و يمكننا ان نقول في هذا الصدد : ان الدوافع فرديّة أو من نطاق علم النفس الفردى على الأقل على حين ان غاية كل

(1) Pradier — Fodéré, *Traité de drou ıternational,* t. Vı, p. 543.

حرب هي جماعية . إنما يُصادَفُ غالبًا أن حروبًا من أعظم الحروب إن هي إلا توسع تقدمي لنزاع قائم بين افراد سيقت اليه جماعات بكاملها رويدًا رويدًا . وما يعانيه أفراد من المظالم والمعاملة السيئة من قبل السلطة حتى يومنا هذا دافعٌ – أو تَعِلَّةٌ – لضروبٍ واسعةٍ من الانفجار .

واخيرا ان للحرب صفة حقوقية بوجه خاص . حتى اننا نستطيع ان نقول : ان الحرب كانت **عقدا** حقيقيا ، لأنه ما من حربٍ لا تنظمها قواعد متفاوتَة في الدقة أو حقوق شكلية أو أعراف . وقد أشار بعض المؤلفين الى أن الحرب بعيدة عن ان تكون معركة هوبز الدائمة bellum omnium contra omnes أو معركة غير منقطعة ، فما هي إلّا «حالةُ حربٍ» أي فترةٌ تُطَبَّقُ فيها قواعدُ حقوقية ذات طبيعة خاصة حتى انه يمكننا أن نتصور فترات طويلة من الحروب دون عدوان : وعلى هذا النحو كانت حروب الموضع الطويلة في القرن الثامن عشر أو ما طرأ على الجبهة الفرنسية الألمانية في الفترة التي سبقت الغزو الألماني من ايلول **١٩٣٩** الى نيسان ١٩٤٠ .

واذا ما درسنا **المبارزة** (duel) والقواعد التي تنظم المعارك الفردية عرفنا بعض المشاهد عن تكوين الحروب ودورها . والمبارزة منازعةٌ مُؤَخَّرَةٌ : هنالك رجلان يتسابان أو يعتبران أن ثمة خصاماً لا يطاق يفصمها ، فبدلا من أن يرتمي احدهما على الآخر أو يحاول الفتك به عدرا أو مكيدة ، يؤخران هذه المعركة العفوية ويستبدلان بها معركة

نظامية وعلانية يشهدها نفر من الناس . وشأن المبارزة شأن الحرب ، فالجماعات أو قادتها يلجمون اندفاعاتهم الحربية حتى لا تثار الاّ في لحظة حاسمة على وحسب بعض القواعد . ويمكننا أن نرى كذلك تماثلا بين مشهد **السير** الحقيقي للحرب التي تفضي إلى وضع نهاية لنزاع دوافعه واضحة سلفا وبين **المبارزة القضائية** . والواقع ان هذه المبارزة لم تعد المظهر المعبّر عن اندفاع عدواني أو تخريبي ، بل صورة من قول الحق : فالله ينصر المحق (١) . وفي الحقوق الدولية الراهنة ، يُبيَّنُ أن الدول تضطر الى الاقتتال على هذا النحو في حالة فقدان يُفَوَّضُ إليه قطعُ ضُروبِ نزاعهم . وتجتمع المجالس الحقوقية العليا **بعد** أغلب الحروب لا قبلها (كمؤتمر برلين ١٨٧٨ مثلا) لاستخلاص **النتائج الحقوقية من عقبى النزاع** . ويجري كل شيء كأنما نظّم اعضاء المؤتمر وحدّدوا خفية مبارزة قضائية توقعوا نتيجتها لاستخلاص النتائج الحقوقية منها .

إن وجهات النظر المختلفة هذه أدت إلى اقتراح تعريفات عديدة للحرب . وقد عرّف م . كنسي رايت (Quincy Wright) الحرب معتمدا على مظهرها الحقوقي قائلا : «ان الحرب هي الشرط القانوني الذي يتيح لرهطينِ حاقدين أو اكثر أن يقودوا معركة بالقوى المسلحة» . واذا ما اعتبرنا مقاصدها وجدنا كلوزفيتز (clausewitz) يقول : «الحرب فعل عنف هدفه تحطيم الخصم لتنفيذ ارادتنا» .

(1) V Esmein, *Histoire du droit français*.

وهنالك آخرون كمارتن (Martens) يرون ان الحرب تقوم غالبا على « نضال بين الرجال ».

وهنالك ايضا آخرون يتطلبون أن يقع هذا النضال بين الدول المستقلة ، وهذا يعني أن يكون للحرب صفة عالمية (وقد قال بهذا Bynkerschoëk وتوينز Twins وجفكن Geffcken Bluntschli وبراديه Pradier و ش . دوبوي Ch. Dupuis وهلم جرا ...

ولنذكر بين التعريفات المتشابكة تعريف فون بوغولسلافسكي (Von Boguslawski) : « المعركة هي التي تقودها جماعة معينة من الناس أو القبائل أو الامم أو الشعوب أو الدول للقاء جماعة مشابهة أو مماثلة » ، ولنذكر ايضا تعريف لا غورجت (la gorgette) » : الحرب هي حالة النضال بين جماعتين أو اكثر من الكائنات المتماثلة في النوع نضالا عنيفا صادرا عن رغبتهم أو ارادتهم ». واليكم اخيرا تعريفا آخر لـ م. كنسي رأيت (M. Quincy Wright) : « يمكن أن تُعَدَّ الحربُ نزاعا بين القوى المسلحة والعواطف الشعبية والعقائد الحقوقية والثقافات الوطنية في آن واحد ».

ونحن نضع للحرب من جانبنا التعريف الآتي : **الحرب هي نضال مسلح ودام بين جماعات منظمة** (١) . وسيجد بعضهم ان هذا

---

(1) Cf. Les guerres, *Loc. cit.*, p. 36 et suiv.

التعريف واسع جدا ، وسيجد آخرون انه ضيق جدا . ومهما يكن من أمر ، لنقل ايجازا : ان الحرب شكل من العنف له صفة اساسية هي انه شكل منهجي ومنظم يتعلق بالجماعات التي تقوم بها والصور التي تديرها بها . وفيما عدا ذلك ، ان الحرب محددة في الزمان والمكان وخاضعة لقواعد حقوقية خاصة تتغير وتتبدل على حسب الامكنة والفترات تغيرا وتبدلا لاحد لها . ويميزها أخيرا انها دامية تهلك الحرث والنسل ، لأنها حينما لا تسلك سبيل ابادة الكائنات الانسانية لا تكون الاّ نزاعا أو فعلا متبادلا من التهديد والانذار والوعيد. ولذلك ليست «للحرب الباردة» بالحرب .

الفصل الثالث

مميزات الحرب المعاشية

١ . ضرورة التكديس السابق

اذا ما اعتبرنا وجهة النظر المعاشية تبدت لنا الحرب نوعا من **النشاط الكمالي الممتاز**. فمنذ تتجاوز مرحلة الغزوات التي نشنها على ارض العدو بقصد نهب القطعان والحبوب ، الخ ... ، تتطلب الحرب تهيئة واعدادا . حتى حينما تشنها بلاد فقيرة على بلاد أغنى منها رغبة منها في السيطرة على ثرواتها تتطلب استثماراً لرؤوس الأموال في بداية الامر. فمن الواجب اعداد شتى انواع الاسلحة ، واعداد حد أدنى من المؤن والذخائر لتمكين الجيش المحارب من الاجتماع والتدريب ثم التغذي حتى انتصاراته الاولى على الاقل وحتى يتمكن من العيش على حساب العدو.

ولا يمكن القيام بالحرب دون رأس مال أول من اليد العاملة والمؤن والذخائر. فكل حرب اذن مشروع معاشي من ناحية ما ، فهي تبدأ بتكديس رأس مال أو نقد أو مواد. وكلما توسع ميدانها وأصبحت

اوسع وأكثر حاجة للمعرفة اصبحت الوسائل المعاشية المستخدمة واستثمار رأس المال أكثر اعتبارا . فالحرب خاضعة للظاهرة العامة من **اطالة لسلسلة افاعيل التهيئة والانتاج** ، وقد أشار الى ذلك بوهم – بافرك (Boehm-Bawerk) .

ان كل حرب تطرح اذن قبل كل شيء مسائل مالية او مسائل انتاجية وتكديسية على الاقل . وقد كان المارشال دوساكس (Maréchal de Saxe) يقول : « لاقامة الحرب ، يجب توفر ثلاثة اشياء : اولا : المال ، ثانيا : المال ، ثالثا : المال » . والحل القديم المعيّن في هذه المسألة – منذ كان نقد معدنيً على الأقل – تأسيس ذخيرة حربية . فقد كانت أغلب مدن العصور القديمة تملك ذخيرة حربية توضع في المعابد . وقد عظمت سلطة أثينا العسكرية والحربية البحرية فجأة بعد اكتشاف مناجم فضة لوريون (Lauriom) : فبانتاجها انما استطاعت ان تبني الاسطول الذي جعل منها الدولة الحربية البحرية الاولى في البحر الابيض المتوسط الشرقي . وانما كانت جمهورية الاراضي المنخفضة التجارية موجدة الجيوش الدائمة الحديثة بما أوتيت من موارد : وعلى الرغم من أنها مؤلفة من اجراء كانت اكثر جيوش أوروبا تربية ، وأحسنها تجهيزا واعدادا ، وأشدها اخافة . ونجد أن تدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد كذلك هو الذي أتاح لاسبانيا ان تصبح دولة عسكرية وحربية بحرية هامة وأن تنظم جيشا دائما استخدمته في اتباع سياسة تسلطية في كل اوروبا الغربية .

ان ذخيرة برج سباندو (tour de spandou) الشهيرة المؤسسة بقسمٍ من التعويض الذي دفعته فرنسا حين عقد معاهدة فرنكفورت (Traité de Francfort) وذخيرة منليك (Ménélik) المسدودة بقدم النصب التذكاري لنصرة هما. بقايا تشهد على الذخيرة الحربية. ولكنا نجد في ايامنا هذه – على رغم إنكارنا – أن عمل الذخيرة الحربية ما زال موجوداً في صورةٍ أكثر ابتذالاً في صورة الاحتياط المعدني لمصارف الاصدار، أو في صورة النقد الأجنبي الذي يمثل الذهب تمثيلا غير مباشر. وأحسن برهان على ذلك ان ضروب الاحتياط هذه توضع في التداول ساعة النزاع وأنه يُشاهَدُ أن ضروب الاحتياط هذه تتضخم أو تقل على حسب نتيجة الحرب. ولربما كان ذلك أحسن آلة قياس لتعيين الظافر الحقيقي في حرب من الحروب. وقد أفضى احتياط الذهب في مصرف فرنسة بعد سنة ١٩١٨ الى وزن لم يبلغه قط من ذي قبل، وكادت هذه الذخيرة الوطنية تُفْقَدُ بكاملها سنة ١٩٤٥. ان اكبر حظ من هذا المعدن الثمين اليوم – على رغم نظريات ستراكوش في «اعادة توزيع الذهب» – أصبح على موعد للالتقاء في اقبية فورت – نوكس Fort. Knox التي يشكل فيها الذخيرة الحربية الهائلة الرهيبة للولايات المتحدة. فرصيد الذهب يمر من ظافر الى آخر.

من المحتوم أنه على قدر ما يبقى الذهب المعيار الدولي يستمر في

أدائه دور الاحتياط الأخير هذا لأن الثقة في النقد الورقي تنقطع إذ تزداد الاضطرابات الاجتماعية خطورة.

واخيرا علينا ألاّ ننسى الميزانيات العسكرية في تهيئة الحروب المعاشية. ففي كل الدول المنظمة، يخصص جزء من الدخل القومي للتسلح واعداد عدد من الرجال (المحاربين، والفنيين، وعمال خزانات الاسلحة والتحصينات، والبحريين وتلاميذ المدارس الحربية والبحرية) الذين يسعون في اعداد الحرب أو في الاستعداد لاقامة جنّة تتقي بها كلّ صدمة.

وهكذا تؤدي تهيئة الحرب دوراً في **إعادة توزيع الدخول** التي تعود الى العسكريين واضرابهم واسرهم. إن اعداد الحرب – في لغة كينز Keynes – يسهم في تحقيق **الاستخدام الكامل** plein emploi وفي بلوغ التوازن المعاشي بعض البلوغ. والنفقات العسكرية مدمجة في وجودنا القومي وميزانياتنا بحيث تُطْرَحُ مسائل خطيرة من بطالة ومنافذ اذا أُبْطِلَتْ وحذفت فجأة.

لكن الموازنات العسكرية تنقطع من الظهور من زاوية التوازن المعاشي الداخلي حينما تضطرد دولة من الدول الى استيراد أسلحة أو مواد أولى أو اشياء اخرى من البلاد الاجنبية.

ونرى حينئذ مسائل عن ميزان الحسابات والمدفوعات تطرح وكذلك مسألة الصرف والتبديل المرعبة. وحرب ١٩١٤ هي التي قلبت

فجأة الصرف والتبديل والتكافؤ في اوروبا إلتي كانت كل النقود فيها مستقرة .

ومنذ ذلك الحين اخذت الاشياء تزداد خطورة كلما لجّت الحرب في استعمال الآلات ولم تعد قادرة على أن تقتصر في قيادتها على رجال مزودين بسلاح بسيطٍ . فولّد هذا الوضع الحذف التدريجي للدول التي لا تتصرف في اراض واسعة ولا تتصرف بوجه خاص في موارد كاملة من المواد الاولى .

كان لفرنسة على سبيل المثل فرقة فرسان كثيرة العدد لا يكلّف معاشها نقداً أجنبياً لأن الزراعة الوطنية تقوم به . ولما انتشرت فيها السيارات اصبحت تتطلب واردات عظيمة من النفط (Le pétro) . تصورت الدول في كل العصور بكثير أو قليل من السعادة أساليب فنية في العمل ومذاهب معاشية ونقدية تفضي في التحليل الاخير الى حماية ذخائرها الحربية وقواها المعاشية الحربية وتضخيمها .

وَمَذْهَبُ كلود دِوبليون والمذهب المركانتيلي وسياسة الاكتفاء الذاتي والتوجيه المعاشي الحديث في مراقبة النقد الخ... إن هي في الاساس إلاَّ ضروب متنوعةٌ من الإجابة عن هذه المسائل (١) .

٢ . نتائج الحروب المعاشية

عقب الطور الفتّاك لاستهلاك الثورات المتسارع (نضم تحت هذا

(١) تقول : أجابه عن سؤاله (لسان العرب) .

العنوان التخريبات التي ليست شيئا آخر غير شكل خاص للاستهلاك) تولّد الحرب حينما تضع أوزارها انتقالاً في الثروات ، ذلك بأنها تقسم من شهدوها الى غالبين ومغلوبين . وهي تنتج من جانب آخر ضروبا من التعديل في الأبنية المعاشية . فهي تعدل ضروب الاستثمار وهي تيسّر نمو بعض الصناعات أو بعض صور الانتاج . وهي تبدل توزع الدخول وقاعدة رؤوس الاموال وتغيرهما . وهي تعدّل – بالمسؤوليات الجديدة الناتجة عنها (كالأجور والغرامات والتعويضات الخ ...) – طابع الموازنة والنفقات العامة . وهي تعدّل – بالشروط المعاشية لمعاهدات السلم – المنافذ والتجارة الخارجية وتؤثر بالنتيجة في الصناعات التي تتعلق بها فتولد انتقالاً في الرجال الذين تستخدمهم هذه الصناعات . وان نتائج الحروب في وسعها أن تعدّل حياة الامم وأبنيتها المعاشية تعديلاً عميقاً .

٣ . الاسباب المعاشية المفروضة للحروب

هنالك نظريات هامة جدا ترى أن العوامل المعاشية هي السبب الأول لكل الحروب . حتى ان بعض هذه النظريات يذهب الى أن الاسباب الاخرى التي يمكن تقديمها خدّاعة أو ليست الاّ دوافع ظاهرة .

ومع ذلك ان كلمة « المعاشي » نفسها ، بنتيجة أنتشار استعمالها ، تبعث على بذر اللبس في الذهن . انها تجمع في الواقع وجهات نظر مختلفة ، حتى أننا يمكن ان نراها متعارضة ومتقابلة : نضرب على ذلك

مثلا حروب الفقر أو حروب تضخم الانتاج ، وحروب الحسد والجشع التسلطي أو الحاجة الواقعية والنزاع المعاشي من قبل ومن بعد ، والنزاع المعاشي نزاعا كليا أو جزئيا ، الخ ... وتوحي مناهج البحث أن ظاهرة واسعة كهذه تتطلب ان تحلّل وتقسّم .

لا جدال في أن كل حرب أنّا كانت أسبابها تخلّف — كما رأينا — اضطراباتٍ معاشيةً . وبكلمة واحدة ، ان لكل الحروب **آثاراً** معاشية ، ولكن بعد حين.

واذا ما أردنا أن نقول : ان العوامل المعاشية **أصل** حرب من الحروب لدى المعتدي على الأقل وجب أن نملك القدرة على ان نثبت أن السبب — **أو محرّك** النزاع على الاقل — معاشي لا يشوبه شيء آخر وأنه العنصر **الأول** الوحيد **والمحدّد** للنزاع في الوقت نفسه .

ويبدو لنا ان قليلا من الحروب يستجيب لهذا التعريف . واذا ما أردنا ان نضرب أمثلةً لا جدال فيها ألفينا القبائل البدائية المتألمة من معاش غير مرنٍ تغزو — كما يفعل بعض النمل — جيرانها للاستيلاء على مدخراتهم الغذائية . وتلكم هي الحروب المعاشية الوحيدة تماماً . ولكن ما إن يتعلق الأمر بالحضارات المعقدة حتى تصبح الحروب « متعددة الوجوه » في اهدافها ودلالتها . وثمة ايضاً في حاجات المجتمعات العارفة الفنية وضروب نشاطها ضروب من امكان مرونة مستويات الحياة

والتعويض والتبدل الواسعين جدا [١] . فليست الضرورة المعاشية عاجلةً أبداً ولا حياتية بهذه البساطة . هل يمكننا أن نتكلم عن احدى الحروب النادرة التي كان لها دافع معاشي معترف به ، وهي «حرب الأفيون» بين انكلترا والصين ، أنها كانت تتعلق بحاجة حياتية مُلِحَّةٍ ؟ انه لجدير بنا أن نقول : إنها حربُ ترفٍ وكماليات مُعَدَّةٌ للحصول على اغناء متمم للمعاش البريطاني .

ولكن منذ أي لحظة بوجه خاص يمكن ان نقول : ان الحرب تفرضها ضرورات معاشية فرضا لا يمكن تجنبه ؟ أفليس من الحكمة أو العقل أن تعدل الدولة عن إغناءٍ أو أن تقبل التضييق في معايشها بدلاً من قبول اخطار عدوانٍ واحتمالاته ؟

ان المسألة تطرح في مجال الدول كما تطرح في مجال الافراد . أثمة مستوى لا تعود دولة من دونه تستطيع أن تُضيق على نفسها أو ضرورة حياتية مطلقة وزهد أو تقتير لا يطاق ؟ اذا ما تعمّقنا دوافع الحروب المعاشية ألفينا أغلبها تنتهي بأن تصبح حروبا نفسية . فنشوة السلطة أعظم من نشوة الثروة . ومن ثم أفلا يتطاول كل من بيده السلطة بهراوته على ثروة الآخرين ؟ ثمة رئيس متوحش كان يقول : بحديدي سوف اذهب لآخذ ذهبكم .

---

(١) يبدو لنا «قانون التعويض» معبّراً عن اكثر الظاهرات قوةً حركيةً في المعاشي السياسي .

أكدنا غالبا مثلا أن ألمانيا نفسها أُكْرِهَتْ على حرب ١٩١٤ من جَراء التنافس المعاشي الذي يكلّف غالياً والذي دعمته ضد الدول الصناعية والمصدِّرة الكبرى الأخرى فكانت على شفا الإفلاس والانكسار من جَراء الاستثمارات الواسعة .والاستخدام المتتابع للقرض. ولكن لا شيء يبدو أقل تأكيدا. ذلك بأن المانيا كان في استطاعتها أن تساعد وتفتّح صناعييها وتجارها فَتَخُصَّهُمْ بِجزءٍ طفيفٍ مما كلّف تسلحها السابق البري والبحري في بداية الأمر وحرب ١٩١٤ – ١٩١٨ بعدئذٍ. وكان في استطاعتها أن تتمتع أيضاً برفاهيةٍ فائقةٍ لا حد لها بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٩ باستثمار جزءٍ ضعيفٍ من مواردها والطاقة – التي كانت قد وضعتها في اعادة التسلح خفية في بداية الامر وجهرا بعدئذ – في أعمالٍ انتاجيةٍ. وفي بعض الحروب التي ما هي بقليلةٍ كحرب ١٨٧٠ يستحيل حتى على العقل ذي الأغراض أن يجد أقل سبب معاشي.

حروب العوز أو تضخم الانتاج؟ . – مهما يكن من أمر فان اشكال عدم التوازن المعاشي الذي يملك ان يحرض على العنف لا يمكن أن تكون الاّ من نوعين: **العوز أو تضخم الانتاج**.

ذلكم هو العوز الذي يذكي بدوافع حربية المجتمعات البديئة التي تجهل التجارة والصناعة. ويروي المؤرخون غالباً أخباراً عما أصاب نجود آسيا المركزية من جفافٍ تدريجي اضْطَرَّ القبائلَ المغولية الى غزو ما حولها من الاراضي فبعثت على اضطراباتٍ حقيقيةٍ، وغَرَّبَتْ تغريباً

تدريجياً ، من جراء الهجرات التي اضطرت اليها أو الغارات الحربية . وتلكم حال قبائل الصحراء الرحّل وجزيرة العرب على السواء .

ولكن ، حتى لدى البديئيين ، هذه أوضاع شاذة . فهؤلاء يذهبون الى الحرب غالباً للحصول على عبيد أولسبي النساء أو للثأر من الشتائم أو لاتباع سنة العدوان على هذا الجار أو ذاك ، أو للتمرين والدربة لا أكثر ولا أقل . ولكن حينما يكون موضوعنا مجتمعات معقدة ، يكون العوز – كما رأينا – عسيرا أن نقبله في صف اسباب الحرب . وتبيّن حالة المانيا في حرب ١٩١٤ كما في الحرب الاخيرة ان البؤس بل المجاعة لم يأتيا إلا من **بعد** . وإنما أصبحت محبةً للسلم حباً مخلصاً على وجه الدقة في اللحظات التي عانت فيها هذه البلايا معاناة واقعية .

ذلك ان التجربة التاريخية تثبت لنا أن الدول انما تبدو أكثر تشاجراً في حجرِ الكثرة . وذلكم قابل للفهم اذا ما تصورنا ان **الحرب لا يمكن ان تتهيأ إلاّ بفائضٍ وفضلٍ** . ويمكن ان نقول : حينما حاربت المانيا سنة ١٩٣٩ كانت أغنى دول اوروبا لأنها كانت تتصرف في موارد تفوق في الوقت نفسه موارد كل الأمم الاخرى على الأقل ، وهي على صورة بضائع من كل الانواع وعلى صورة اسلحة ، أي على صورة ثروات حقيقية ، وعلى صورة منتجات موجودة .

ان مثل **الحروب التسلطية** يأخذ بالانتباه . ان هذه الحروب يشنها دائماً الاكثر غنى ومالاً على الأقل مالاً . فالدول الأوروبية التي كانت في أوج ثرواتها واستقرارها هي التي هاجمت الأمم الشرقية الواقعة في

تأخرٍ كبيرٍ وإفريقية التي بقيت متوحشة ذلك الزمان. وكذلك روما وهي ذات حظ عظيم من الثروة تفتح بلاد الغال (La gaule) ورنانيا (La Rhénanie) وداسيا (La Dacie).

ان حروب المنافذ هي أيضاً حروب تضخم في الانتاج ، لأنها تستلزم ان أمة نما انتاجها وطغى ، فهي تبحث عن مشترين في البلاد الاعجمية (١).

يقول ف. آنجلز (F. Engels) : «ليس العنف بعمل ارادي مجرد عن غيره ، انما يتطلب حتى يكون ممارسا شروطاً سابقة محسوسة جدا ، وهذا يعني الآلات ...». ولكننا نحن سنقلب الآية رأسا على عقب ونقول : ان مثول الاسلحة غير كاف ما لم تكن هنالك رغبة في استخدامها. فلولا هذا الدافع الحربي لاستعمل الناس قواهم الانتاجية في صنع برّادات بدلاً من صنع دباباتٍ حربيةٍ وطائرات تجوالٍ بدلاً من قاذفات قنابل. واذا ما كان ثمة تبادل تأثير بين اساليب العمل الفنية والعنف فإن **أساليب العمل الفنية هي التي تبدو لنا ساعية بذمة العنف**. وانما الدافع الحربي هو الذي يدفع الى انتاج السلاح أولاً ثم استخدامه ثانياً.

---

(١) فسّر كثير من علماء المعايش حرب ١٩١٤ ، من وجهة نظر المانيا ، بأنها في الوقت نفسه حرب منافذ اي حرب تضخم في الإنتاج (لأن انتاجها الصناعي عظم اذ ذاك) وحرب عوز هدفها المعترف به الحصول على الغلال والمواد الأولى التي كانت تعوزها. فتأثير المعاش في الحرب ذو قوة ثنائية ، اللهم إن لم يكن متناقضاً.

٤ . الحروب والفرص [١] المعاشية

لقد ولدت الازمات المعاشية الدورية منذ القرن الثامن عشر. والمكان المتعاظم الذي يتخذه تكوين طبيعة وسائل الانتاج الجديدة جعل المدّخر النامي يُستَثْمَرُ في آلاتٍ وضروبٍ من البناء بوجه خاص . ولسوء الحظ ان صناعات الحرب هي على وجه العموم عَيْنُ صناعاتِ خيرات الانتاج ، وعلى رأسها تقوم المعادنُ ثم كل ضروب البناء (كطرق المواصلات الحربية والموانئ، الحربية ، والتحصينات ، والثكنات الخ ... » . وهذا ما يتيح لنا ان نعرف كيف ان الحرب – أو انذارها وحده – تنعكس على الأحوال المعاشية. ويمكننا أن نميز ثلاثة مظاهر : أحوال التمهيد للحرب وأحوال الحرب وأحوال الترميم .

أحسن مثل على فرصة التمهيد للحرب مثل المعايش الالمانية من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٤٠ . فقد اتسمت بالادخار الإلزامي وتكوين البضائع وزيادة الطلبات على الصناعات المعدنية والكيميائية . وقد نشأ عن هذا سعادة عظمى : فكثر عرض العمل ، وارتفعت الاجور ، واشتغلت الصناعات بملء استطاعتها واستيقظت روح الابتكار ، ولبس كل شيء ثوب الجدة ، وأصبح الاحساس بوفرة الحياة بالغا ذروته . وذلكم ما استطاع أن يجعل الناس يقولون : «لا تسعد المانيا أبدا الاّ حينما تكون حبلى بحرب» .

---

(١) الفُرْصَةُ النَّهْزَةُ والنَّوْبةُ (لسان العرب) .

أما فترة الحرب فهي تتسم باستهلاك الاموال المتكدسة السريع . وتستمر الصناعات والمنتجون في العمل حتى أقصى استطاعتهم . والمحايدون من جانبهم يكرهون على زيادة إنتاجهم أيضاً لتموين المحاربين .

وتصبح فترة الترميم اخيرا بعد ضروب العدوان إزاء بناءٍ معاشيّ قد تغير تغيرا عميقا . ففي الحرب أسرف متاع القسم الذي يصنع مواد الانتاج في النمو . وان هذا القسم يجد أثناء وقت ما منفذاً كافياً كفاية كبيرة في اعادة بناء ما أتلفته الحرب وما خرّبته . ولكن حينما تتم اعادة البناء يقوم نذير البطالة والحاجة الى المنافذ . فتنشأ الازمة حينئذ . وعلينا في هذا الحال ان نختار : اما ترك قسم من القوة الصناعية يصدأ ، واما ايجاد حل جريء . ولكننا نحن نرتمي حتى الآن في اعداد برامج التسلح الذي هو المنفذ الجشع للمواد المعدنية الفائضة الانتاج .

ومن ثمّ نرىٰ أن الحروب تنتج دوما ارتفاعا في الاسعار وزيادة في الاستهلاك . فهي تبدو اذن قلبا للأزمات المعاشية ، لأنها تبتلع البضائع الفائضة عن المنتجات والناس أي تبتلع البطالة ايضا . فحاجات الناس والخسائر توجد طلبا لليد العاملة ينتج عنه ارتفاع عام في الاجور ، وزيادة في عدد الأعمال والوظائف فالحرب توجد دوما منافذ عظيمة للناس بصورة أو أخرى .

ففي فرنسا على سبيل المثل ، اثناء حرب ١٩٤٠ — ١٩٤٥ ، أثّر

التوظيف[1] الإلزامي للمعايش ومراقبة الأسعار ومراقبة الانتاج والمنظمات الحرفية والشرطة في رفع عدد الموظفين من حوالي سبع مئة الف سنة ١٩٣٩ الى ما يقرب من مليونين سنة ١٩٤٦ . فالحرب تستعجل على هذا النحو سلسلة الافاعيل المميّزة للمعايش الحديثة ، وزيادة ما يسمي كولان كلارك Colin Clark وفوراستيه (Fourastié) القسم الثالث ، قسم الأعمال الادارية والفنية . وبكلمة واحدة ، أَوْجَدَ معاش الحرب الموجَّه من جانبه تعبئةً إدارية موازية للتعبئة[2] العسكرية الّا انها اكثر ديمومة ، زاد ديمومتها أنها كانت بدون خسائر. ومما لا مراء فيه ان اثر الحروب المعاشي هذا يولد اشتداد الروح الحربية كلما حَلَّ كساد معاشي في بلاد صناعية يأخذ بخناقها .

كان ماركس Marx يرى ان الرأسمالية – كلما عظم تركيز المشروعات – تهزها ازمات تزداد عنفا فتكره على الحرب وتنتهي بجلب تخريبها الكلي . والصورة – التي حدثت بها ازمة ١٩٣٠ التي ساد العالم منذ وجودها جو الحرب – تنسجم مع هذه النظرة . ويلاحظ مع ذلك ان ماركس لم يعرف الاّ عالما معاشيا كان يسيطر النقد المعدني فيه .

---

(١) الوظيفةُ من كل شيءٍ ما يُقدَّر له في كل يومٍ من رِزقٍ أو طعامٍ أو عَلَفٍ أو شرابٍ وجمعها الوظائف والوُظُف. ووظَف الشيءَ على نفسه ووَظَّفَهُ توظِيفاً أَلزمها إياه (لسان العرب) .

(٢) وعبّأتهم تعبئةً ... أي رَتَّبْتُهم في مواضعهم وهيّأتهم للحرب (لسان العرب) .

وينتج من هذا عدم مرونة في الاسواق ومسائل التمويل . ان اساليب النقد الفنية الراهنة – كما رأى كينز Keynes – يمكن ان تبدل وجه المشكلة في البطالة بوجه خاص .

ونرى من جانب آخر أن الازمات المعاشية جديدة جدة نسبية . فلم يمض الاّ قرنان على نشوئها ، وتلكم مدة قليلة جدا اذا ما قيست هذه الازمات بالحرب القديمة قدم الانسان . ولم تكن الازمات كذلك تعني الاّ البلاد الصناعية في بداية الأمر ، أي انكلترا وبعض بلاد اوروبا الغربية .

ولا يمكن أن ندعم اخيرا قولنا : ان الازمات المعاشية تستدعي الحرب دوما . فأشد الازمات المعاشية خطرا – أي أزمات الشطر الاول من القرن التاسع عشر – لم تولّد حربا لأنها كانت تحدث في عالم أدهشته جدتها ، وهو جاهل بطبيعتها وبكل علاج لها . بل كانت هذه الفترة فترة من أكثر الفترات سلما في التاريخ الاوروبي . وهذه الفترة انما هي على وجه الدقة الفترة التي اعتقد فيها مفكرون كأوغوست كونت وهربرت سبنسر – معتمدين على البيئة وتاريخ فترتهم – أن النظام الصناعي – بفضيلته الوحيدة – في قدرته أن يُؤَخِّرَ الحرب أو أن يزيلها .

الفصل الرابع

مظاهر السكان في الحروب

١ . آثار الحروب في السكان

ان كل حرب تعرض لنا مظاهر كثيرة . انما يهمنا منها مظهر واحد نستطيع ان نرى فيه جوهر الظاهرة ذلكم هو **القتل الجماعي المنظم الغائي** . لأنه لا حرب دون قتل فللحروب جميعا بالنتيجة آثار سكانية وَلَوْ لأنها تزيد الوفيات زيادة شاذة .

ان التعليمات الوحيدة المؤكدة التي يمكن ان نستخلصها من الدراسة الموضوعية للآثار السكانية للحروب هي التالية :

١) ان زيادة الوفيات هي ميزة سكانية ثابتة وعامة في الحرب . انما تتفاوت هذه الزيادة تفاوتا لا حد له على حسب الحالات وعلى حسب أطوار النزاع بعينه . وهي تتفاوت كذلك على حسب **عقبى النزاع** ، لأن طبيعة الخسائر ونسبها المئوية وتوزعها ليست نفسها لدى الغالب والمغلوب . وان الغالب على وجه العموم لا يخسر الاّ جهوداً أي

فتيانا . وان الضحايا لدى المغلوب المغزو المحتل المخرّب تخريبا نظاميا أكثر عددا وتنوعا معا . فكل حرب تنطوي على مغلوب أو مغزو على الاقل . وتلكم وقاءً اجتماعيا ينبغي ان نأخذها بعين الاعتبار.

٢) ان الحرب يمكن ان نصفّها بين المنشآت المخرّبة الارادية .

وكذلك نسمي كل تلك المنشآت التي تنزع اما الى منع الولادات ، واما الى نقص عدد الاحياء. وينبغي لنا أن لا نخلط **هذه المنشآت المخربة الواعية** بالاسباب غير الواعية أو غير الارادية للوفيات الشاذة كالمجاعات أو الامراض السارية . فالاولى منشآت بالمعنى الاجتماعي للكلمة ، وهي مرتبطة بالأمنية الاجتماعية والعقليات والافعال التي توحيها .ولا ريب ان ثمة مجاعات أو امراضا سارية تثور في مجرى النزاع . الاّ انها تكون اذ ذاك جزءا من حوادثه المعترضة أو نتائجه . وتلكم آثار ثانوية أو اصداء أو توابع (١) .

٣) ان الخسائر المباشرة في كل الحروب تنحصر في موت **الفتيان** انحصارا اساسيا . فحينما يكون هنالك محاربون ذوو اعمار مختلفة يكون المألوف ان يُعرَّض الفتيانُ لأشد الاخطار. والأمر متعلق هنا بتقليد عسكري عام وقديم جدا . اما في التنظيم العسكري الحديث فان فرق الجيش النشيط الحي. أي الفتيان . هي التي تتحمل الصدمات الأولى . فلقد كانت تلقى مصارعها في الاشهر الاولى من سنة ١٩١٤ .

(1) Cf. Les travaux de M.L.Herschsur, *Les effets démographiques de la guerre* de 1914-1918.

إن جند الانقضاض والجوّالين والمغاوير والرّوّاد المظليين اليوم أفواج الفُرسان الذين كانت أعباؤهم في سالف الزمان مميتة جداً، كل أولئك من الجنود الفتيان في كل مكانٍ.

ولقد كان ترتيب القتال في الجيوش الرومانية يشمل ثلاثة خطوط متتابعة على حسب ترتيب الاعمار، في طليعتها أكثر المحاربين فتوة. واخيرا حينما يشتد الغالب في تدمير المغلوب بعد نصر ساحق، ينصب القتل على الفتيان انصبابا. والبديئون في هذه الحال يذبّحون الرجال ويستحيون النساء. وحينما يَعْفُون عن الصبية الصغار يفعلونه بفيض من التنبه إلى تغيير عقلياتهم: وقد كان الاتراك يجعلون من الاطفال اليونان حراسا للسلطان وجنودا انكشاريين على هذا النحو.

٢ ـ الوظيفة السكانية للحروب

ان الوظيفة في علم الأحياء هي عملية تتكرر في كل الكائنات الحية ذات النوع عينه تكرراً نظاميا. ويرى دوركايم في البدء أن الوظيفة منظومة حركات حياتية بصرف النظر عن نتائجها (كوظيفة هضم على سبيل المثل). ولا تملك الكلمة ان تنطبق – على هذا النحو – الا على الكائنات الحية. ولكي تكون فكرة الوظيفة كاملة ينبغي ان ندخل فيها اعادة الفعل الذي تتجلى به. ولكن الاعادة ليست متماثلة تماثلا قويا دوما في الكائنات الحية المعقدة والمجتمعات المتمايزة بوجه خاص. وهي تفسح مجالا للابداع والابتكار أيضاً.

إن فكرة الوظيفة وقد بلغت هذا الكمال تنطبق على مؤسسةٍ انطباقَها على عُضْوٍ. ولامراء والحال هذه أن الحرب مؤسسة اجتماعية. وكلما انفجر نزاع تملَّكتنا الدهشة تملكاً وقضى علينا الأسى بلا طائلٍ فلا يمنع ذلك أن تكون الحربُ مؤسسةً اجتماعيةً مستقرةً نجدها في كل مكان تحتك فيه جماعات انسانية منظمة.

وهكذا نجد أن الحرب هي أحد الاشكال الاساسية للعلاقات القائمة بين المجتمعات. هذا حُكْمٌ قاسٍ اذا شئنا، الاّ أنا لا نملك نكرانه. فهنالك اعضاء اجتماعية متباينة تخوض غمارها. وهي ظاهرة معادةٌ مكرورةٌ متواترة دورية أو دورية شكلية على الاقل، غير أنها مع ذلك خصبة الابداع والاختراع. فيمكننا اذن ان نتوهم انها تؤدي وظيفةً واحدةً أو كثيرة القوى (١).

ونتساءل، في مظهر الحروب السكاني، عمّا تستطيع هذه الوظيفة أن تكون. لقد رأينا أن الحرب تؤدّي إلى ارتفاعٍ في الوفيات وتؤدي غالباً إلى انخفاضٍ موقت على الأقل في المواليد.

اذن اننا **نجد عجزا في السكان**. ويبدو لنا ان هذا يدل دلالة مؤكدة على **وظيفة تخريب وانفاق** أو استهلاك متسارع.

---

(1) Sur la périodicité des phénomènes biologiques et sociaux, voir Kostitzin, *Biologie Mathématique,* et notre *Traité de Sociologie,* Payot éd., 1935, p. 321 et suiv.

يقول برغسون : « ثمة حياة كلما وجدت منظومة اجسام قابلة لتجميع الطاقة من منبع كالشمس ، ثم لردّ هذه الطاقة وتحريرها على صورةٍ تكاد تكون انفجارية » .

فالتجميع البطيء المتبوع بتفريغٍ مفاجئٍ : هو طابع وظائف أعضائنا الحيوانية فليست خفقات القلب ولا الهضم ولا الولادة أو الموت عمليات مستمرة . فثمة سلاسل أفاعيل متشابهة موجودة في حياتنا النفسية ، وفي **الابتكار** بوجه خاص . وكل شيء يجري قياساً على ذلك كأنَّ الحربَ وظيفة اجتماعية معادة مكرورة تتسم **بتجميع رأس مال انساني في مجتمع تقذف جزءا منه في لحظة معينة قذفا تتجلى فيه الفظاظة والتوحش** .

لقد اقترحنا ان نطلق اسم **الصيغة الانفجار ية** على الصيغة السكانية المعاشية لرهط فيه **فائض كبير ، فائض من الفتيان يتجاوز المساعي التي لا غنى عنها في المعايش** . ويمهد هذا الوضع السبيل الى الدافع الحربي لأنه ينزع الى المحَلّ في امتداد مفاجئ ذي طابع قطيعي يبتعثه ضيق الأرض بالناس نمطاه المألوفان : **الهجرة الجماعية والارسال الى الحرب** . **ذلك ان الحرب ان هي الاّ هجرة مسلحة ومنظمة** إلى دار العدو تارة ، وإلى الدار الآخرة تارة اخرى . انها تنتج اذن في كل الحالات — أيّاً

كانت عقباها – توقفا متفاوتا في الطول في ربل [٢] السكان. والمنحني الصاعد ينعطف أو ينقطع. وقد اقترحنا ان نطلق اسم **التحرير السكاني** على مصرع الناس وابطاء النتاج المفاجئ اللذين يتبعان كل حرب بلا شك [٣].

الصيغة الانفجارية. – وهذه احدى المسائل التي شغف بها علم الاجتماع شغفا عظيما وطرحها على بساط المعرفة: هل تنعكس صيغة المجتمعات وتركيبها وتوازنها على استعدادات اعضائها النفسية انعكاسا لاشعوريا؟ أفلا تبعث فيهم بعض الدوافع الجماعية التي سوف تثور بالظروف (التي تخلقها هي نفسها غالبا) وتصبح بعدئذ شعورية واعية خلال حججٍ وضروبٍ من الاستدلال المُسَوَّغ؟ بلى، ولكن عن طيب نيةٍ لأنهم غير شاعرين بطابعها الخدّاع.

ان الفتيان المتهيئين الذين لا عمل لهم ممهَّدون للطيش. وهم يؤلفون قوة مخلة بالنظام. فعلى حسب النقاط التي مقاومتُها أقلُّ مقاومةٍ والتي تقدَّم إليهم، وعلى حسب الظروف التاريخية، والازياء المثالية الفكرية وضروب الإمكان السياسي والفني تتجه قابلياتهم وشهواتهم وطيشهم الى حرب مدنية أو جهاد مثالي أو هجرة أو حرب أجنبية. وَكُلُّ ما في الامر هو أن نعرف كيف نفيد منهم. وذلك ما يفسر كيف ان الحكومات المحبة للحرب والتسلطية تدعو الى **تضخم** حقيقي في

---

(٢) وَرَبَلَ بنو فلانٍ يربُلون كثر عَدَدُهُم ونَمَوْا (لسان العرب).

(3) Cf. *Cent millions de morts*, p. 47 et suiv.

السكان . وان هذه الحكومات – بزيادات مالية وعقوبات من كل الانواع – تكثر فئات الاطفال بالخوف والابناء بتعيين مبلغ لهم . **فنجد** انفسنا من ثمّ ازاء حلقة مفرغة فاجعة دار فيها الناس الطيبون جميعاً . وان الخوف من الحرب والاهتمام بدفع العدوان يؤديان إلى توليد جنودٍ للمستقبل . ولكن حتى هذا التكاثر يقلق الجيران في الخارج ويولد الدوافع الحربية في الداخل . ولنأخذ مثلاً : كانت فرنسا ذات شعب كبير حين الثورة بأرقام مطلقة اذا قيست بالاساليب الفنية الزراعية والصناعية في ذلك العصر (١) . وكانت ذات شعب كبير ايضا اذا قيست بسكان باقي اوروبا . وكان اطفال اكثر فترات تاريخها ولادة يبلغون عمر الرجولة حينذاك . وقد ارتمى هذا الفائض من السكان بالاعتقاد نفسه باديَ بديٍّ في الثورة المثالية ثم في الحروب المدنية والارهاب وفي الحملة الجمهورية لمجلس الادارة واخيرا في حرب ملكية من نمط حرب العصور الوسطى فيها فرسان شجعان وإقطاعات وبياطرة وامبراطورية مقدسة . ثم عاد كل شيء هادئا ولكن بعد مجموع مليون وسبع مئة الف من القتلى الراشدين أي اطّراح حوالي ١٦٪ من السكان الذكور.

والمحقق على وجه العموم أن الفترات الطويلة للحروب المخرّبة تتبع فترات الازدهار الديموغرافي . فقد خَلَفَتْ حرب المئة عام أوج السكان في بداية القرن الرابع عشر. وخَلَفَتْ حروبُ الثلاثين سنة والديانة الحد

(1) G. Latimier, in revue *Population*, Janvier 1946.

الاقصى الذي بلغ من جديد في القرن السادس عشر. وقد أتت حروب الثورة والامبراطورية في نهاية القرن الثامن عشر حينما تشكلت الثورة الديموغرافية بالتلقيح. وهكذا ترينا التجربة التاريخية انه لا يمكن تصور أية حرب كبرى في خارج الجو الخاص الذي تخلقه زيادة السكان. ولا يمكن أن توجد حرب كبرى دون بناء ديموغرافي أدنى مناسب (٢).

لذلك يبدو ان الحرب ليست ظاهرةً بديئةً بل ظاهرة عارضة لاحقة وتعبير محموم عن اختلال التوازن الاجتماعي والديموغرافي بوجه اساسي. وهذه هي الحالة التي تكوّن احدى الاستجابات المميّزة لعلم النفس الاجتماعي والتي اطلقنا عليها اسم **الدافع الحربي الجماعي**.

وهذه الضروب من الرجرجة هي التي تفسر كيف يمكن ان تبقى معارك قديمة بين امم متجاورة أو منافسات بينها أمداً بعيداً في سُبَاتٍ عميقٍ وسِنَةٍ من النوم ثم تستيقظ في بعض لحظات التاريخ وتعود غير محتملة.

ان كل حرب في نظر علم الحرب الاجتماعي تقدم طاغيةً: انما هو الذي يكون لديه هذا الدافع الحربي أقوى ما يكون والذي يرغب أشد الرغبة في النزاع أو الذي ينجذب اليه عن طواعية انجذابا قد يكون لا شعوريا. والدوافع الجماعية العميقة هي غالباً الدوافع التي تتنكر أحسن تنكر لأنها تبلغ إلى إخفاء شعورنا وخنق روحنا النقدي أشدَّ البلوغ.

---

(2) Cf. Emile Levasseur, *La population française*, t. 1, chap. 1er.

ولكن الانعكاسات النفسية لتغيرات البناء الديمغرافي تكشف عن مرونةٍ عظيمةٍ ككل الظاهرات الاجتماعية . ولا يقتصر التغير على **زمن الاستجابة** ، بل قد تكون الاستجابة نفسها **منحرفةً** نحو مخارج اخرى أو غايات اخرى . وانما هاهنا يكمن للانسانية الامل في معالجة مصيرها أو تحسينه . **فإذا لم نستطع حذف وظيفة حياتية فاننا نستطيع على الاقل ان نحرفها عن جهتها** . وأن نوجد لها احياناً ما يحل محلها .

يكلمة واحدة الشكاوى التي تولد ضروب النزاع موجودة في كل الازمان . والمسألة ان نعرف سبب حدوث الانفجار في لحظة من اللحظات دون لحظة اخرى . وانما هذه هي اللحظة التي تبدو لنا بوجه خاص معينة بالبناء الديمغرافي . حينما تخرج أمة من **الأمم** من حرب يدعها اسوأ دعوات القتال هادئة . ان **الحرب الوقائية** التي أوصى بها عدد من المؤرخين رجال الدولة البصيريين تكون لهذا السبب غير قابلةٍ للتنفيذ حينما لا تساير بناءً ديمغرافياً مناسباً . وهكذا أمم أوروبا الغربية حين تجديد الاعداد العسكري لبريتانيا أو مونيخ .

٣ ـ الوظيفة البَدِيئَةُ للحروب

لقد اطلقت افتراضات كثيرة في هذا الموضوع منذ أمد بعيد . وقد اعتبر كنتون (Quinton) بعد برودون ان الحرب تُستخدَم في «ادامة النوع بموت الافراد» ، وانها تصطفي أحسن **الناس** واقواهم . ولكن يجيب انصار السلم بأن الأمر يتعلق «باصطفاء متقهقر» لأن

الحرب ، على النقيض ، تهلك بوجه عام أقوى الناس واكثرهم فتوة . ومن جانب آخر ، اذا كان في المملكة الحيوانية انواع مختلفة يفترس بعضها بعضا أغلب الاحيان فإن الحرب تقوم بين الناس دون غيرهم ولا تملك إذن أية علاقةٍ باستمرار النوع .

اذا أردنا ان تؤدي الحرب وظيفة بيولوجية ما وجب علينا ان نبحث عنها في مجال الاصطفاء . ولا يمكن ان تكون هذه الوظيفة غير **التخريب نفسه** . وهذه الوظيفة التخريبية اكثر استقرارا وديمومة في المجال الديمغرافي مما في المجال المعاشي لأن نفقات حرب من الحروب يمكن ان تسترجع بسَلَب الظافر . ولكن الاموات انفسهم يبقون امواتاً . وينبغي على الاقل فترة جيل لتعويضهم . وهذه هي المدوه الدنيا للاطّراح الديمغرافي .

ويبدو أن هذه الوظيفة البيولوجية التي تؤديها كل الحروب هي الوظيفة الاساسية . وان كل الوظائف الاخرى التي يمكن ان تؤديها الحرب مُعَرَّضَةٌ إلى ضروب من الكسوف والوظيفة الديمغرافية هي الوظيفة الوحيدة الدائمة دواما مطلقا والتي تبدي تلازما أو ترابطا بنسبة ١٠٠٪ لأنه ما من نزاع مسلح لا يولد ضروبا من التخريب البشري . وهكذا كان الأثر المباشر الاول لكل حرب الأثر الذي تخلفه في الابنية الديمغرافية . فهي تستأصل من الجماعة (كالقبيلة والمدينة والامة والامبراطورية ، الخ ...) ، عددا من الناس بالابعاد والابادة في الوقت نفسه . فالحرب هجرة مسلحة .

إن تلاؤم السكان مع انفسهم ومع البيئة الجغرافية والمعاشية والسياسية في الوقت نفسه لا يجري على حسب حركة مستمرة. وهو ككل الظاهرات البيولوجية مضطرب تمثله منحنيات متذبذبة منقطعة من النموذج الذي درسه علم الأحياء الرياضي (مثل دراسات لوتكا وفولترا Volterra وكوستتزن Kostitzin ، الخ...). والحرب احدى اكثر الظاهرات توحشاً بين هذه الظاهرات التلاؤمية. ولكنها ليست الظاهرة الوحيدة. فثمة مؤسسات أخرى ذات صفة تخريبية تتحقق بها نتائجُ مماثلةٌ من اللجم والاطراح الديمغرافي.

٤ . المؤسسات التخريبية

الى جانب الوفيات التي تعود إلى أسباب طبيعية في كل المجتمعات ، ينبغي ان نفسح مكانا **لوفيات المؤسسات** أي لوفيات متولدة. وتقوم هذه الوفيات اما على الابادة بالموت العنيف واما على تأثير شروط الحياة المفروضة على بعض مجموعات أعضاء الجماعة بحيث تَقْصُرُ أعمارهم. نذكر:

أ) **قتل الاطفال المباشر.** – قال القرآن : «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقكم واياهم.» ولكن النبي محمداً في جزيرة العرب الجاهلية عانى كثيراً من المشقة في إبطال وأد البنات. وفي مجتمعات بدائيةٍ أخرى انما يضحى المواليد الذكور عن طواعية. وقد كان قتل الاطفال مؤسسة مستقرة تعترف بها القوانين وتَعُدُّها حقاً

مقدساً لأبي الأسرة في الحضارات الأوروبية في العصور القديمة . أما التخلي عن المواليد فوجب أن ننتظر المسيحية حتى ينقطع هذا العمل من أن يكون معترفا به أو محتملا . ولنذكر المكان الذي يتخذه الرضع الذين تخلّى عنهم أهلوهم في القصص والتراجم ، فموسى (Moïse) ورومولس (Romulus) و(Cyrus) وأوديب (Oedipe) الخ ... كانوا أطفالاً تخلى عنهم أهلوهم .

ب) **قتل الاطفال غير المباشر** . — يُتَرْجَمُ الإهمالُ الذي يستهدف المواليد الإناث بوفياتٍ عظيمةٍ في عدد من المجتمعات القديمة كالصين أو بعض المجتمعات الشرقية . فضروب الفظاظة والمعاملات السيئة وفقدان العنايات صور لقتل الاطفال غير المباشر تزداد خطورتها بالفقر واكتظاظ السكان . كذلك فقدان تشريع حماية الطفولة حين ولادة الصناعة الكبرى اذ كنا نرى اطفالا في السابعة من العمر يشتغلون في المناجم . وكذلك حق ملكية الأب لذريته ، ذلك الحق الذي تعترف به الحقوق الرومانية التي ما تزال تعيش حتى ايامنا هذه في جزء كبير من الانسانية . وان النخاسة (١) كان يغذيها في جزء كبير منها الآباء الذين كانوا يبيعون أطفالهم .

وثمة صورة أخرى من قتل الاطفال غير المباشر : تلكم هي مِحَنُ

---

(١) وقد يسمى بائع الرقيق نَخّاسًا (لسان العرب) .

المُسَارَّة [٢] التي ترافق عادةً الانتقال من حياة الطفل الى حياة المراهق في الحضارات البْدِيئَة (كفترات الصوم ، والوشم والضرب بالعصا والجلد الخ ...) . ونحن نعثر على بقايا من محن المَسارة هذه في إزعاج التلاميذ القدامى للجدد في المدارس ونعثر عليها بوجهٍ عامّ في كُلِّ المؤسسات التي يطلق عليها آمون (Ammon) اسم **المؤسسات الاصطفائية** : كالامتحانات والمسابقات والاختبارات والخدمة العسكرية ، والتي تفضي افضاء غير مباشر إلى إضناء نصيب عظيم من الفتيان والصبيان بوجه خاص أو إتعابهم أو تثبيط عزائمهم وإلى إبادتهم أو هُزالهم أحياناً . وأخيراً حينما تحدث أزمات أو مجاعات أو أمراض سارية ، الخ ... إنما نجد أن الفتيان بوجه عام هم الذين يذوقون العذاب أكثر من غيرهم .

ج) **حَبُّ الخُصَى** . – أدّى دوراً هاماً جداً خلال التاريخ . ويقول تافرنية (Tavernier) في القرن الثامن عشر بأنه خُصى [٣] اثنان وعشرون ألفاً في مملكة غولكوندا [٤] (Golconde) في سنةٍ واحدةٍ . ولم تكن هذه المملكة إلاّ مقاطعة من

---

(٢) وسارَّه في أُذُنه مُسارَّةً وسراراً ... وسارَّه مُسارَّةً وسِراراً أعلمه بسره (لسان العرب) .

(٣) وخَصَى الفحلَ خِصاءً ممدود سَلَّ خُصْيَيْهِ يكون في الناس والدوابِ والغنم (لسان العرب) .

(٤) مدينة قديمة من مدن الهند قرب حيدر أباد (المترجم) .

امبراطورية المغول العظام Grands Mongol . وكان الخِصاء يصحب غالبا الرق وخطف الطفل. وكانت له كذلك صفة رمزية لدى عدد من الشعوب : فثمة صور مصرية ترينا كتبة يحصون أسلاب هذا النوع التي جلبها الجنود الغالبون.

لا يتاح هاهنا أن نعرض عرضا مفصلا التفسيرات المختلفة التي أريد إعطاؤها هذه العادة. ويحتمل أن لا يوجد للخِصاء تفسير منطبق في كل مكان صادق في كل الحالات وجل ما هنالك أنه ينشأ – على حسب الفترات والمجتمعات – من معتقداتٍ ومؤسساتٍ معينةٍ يكون تطبيقها المنطقي. انما لا يمكن ان لا تعد هذه التفسيرات الاّ حوادث للحقة من وجهة النظر الديمغرافية. وأيّاً كان دافع الخِصاء فإن النتيجة هي أن عدداً من الفتيان يُسَلُّونَ من عملِ النسلِ. وحينما يكون هذا الرقم هاما ينعكِس حتما على الولادات بصورة أو بأخرى.

د) **الرهبانية**. – التي تُحْدِثُ مع ذلك النتيجةَ اللاجمةَ نَفْسَها لنمو السكان من دون جَبٍّ. وهي تؤدي دورا يتفاوت على حسب المكان والفترة الزمنية تفاوتا عظيما. وهي تبلغ احيانا نموا معتبرا جدا، كما في بعض فترات العصور الوسطى وفي اسبانيا في القرن السادس عشر. وفي فرنسا، قدّر رجال الدين بمئتي ألف شخصٍ على عتبة الثورة. ولكن الفترة العظيمة للرهبانية قد مضت منذ عهد بعيد.

اما في إسبانيا على سبيل المثل فذروة الرهبانية تساير الفترة الشديدة للهجرة على حين كان سكان شبه الجزيرة يعمرون الامريكتين. ويبدو

أن الرهبانية النامية نمواً عظيماً كما في التيبت (Thibet) تكون جزءًا من الاستجابات اللاشعورية التي يمليها التوازن الديمغرافي المعاشي [١] .

هـ) **الرق** . – يتميز الرق من وجهة النظر الديمغرافية بخصب ضغيف جدا وبوفيات بالغة . والاحصاءات الحديثة النادرة التي كنا نملكها حول وفيات الارقاء في الآنتيل (Antilles) في بداية القرن التاسع عشر تدل على أنها كانت تبلغ خمسة أضعاف نسبة وفيات السكان السود المحرَّرين .

ويتعلق الامر مع ذلك بفترةٍ زاد تقييد النخاسة فيها ثمن الارقاء زيادة معتبرة وحسّن معاملتهم في النتيجة . ويؤدي العمل الشاق المقسور عليه في ايامنا الدور التخريبي نفسه يزيد الطين بلةً أن العامل المحكوم عليه بالأعمال الشاقة لا يكلّف شيئاً فلا يستطيع أن يرجو أي عنايةٍ أو تدبيرٍ .

ويمكننا أن نشبه بالرق بعض شروط العمل كالحمل والنقل .

وما زال النقل البشري في الصين اليوم يحل محل الميازيب ، ويندر ان يتجاوز عاملٌ يَجرُّ عربةً نقّالةً يركبها إنسان سِنَّ خمس وعشرين سنة (وقد كان ثمة آلاف العمال الجرارين في المدن الصينية) .

---

(1) Charles Bell, *Portrait of the Dalaï-Lama,* Londres 1946.

ونلاحظ ان الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية على حد سواء حينما وصلتا الى حدود توسعهما واستطاعتا اثناء قرون ان تتمتعا بأمن لا يعكره هجوم استسلمتا كلتاهما الى تضحيةٍ بالِغَةٍ بالأقنان ويبدو ان هذه التضحية حلّت اذ ذاك محل الخسائر العسكرية في فترات النضال والخطر.

و) **الحق الزجري** . – ذو أعباء ثقيلة دوماً تنوء بها كواهل الفتيان . والواقع أن كَوْنَ الدوافع أعنفَ دوماً لدى الفتيان يبعثهم على الجريمة والتشرد ، الخ . ويختصهم بالزجر.

ان النظام القديم في اوروبا ونظم البلدان القديمة بوجه عام كالصين تعرف سيماها بعادة حُكم الإعدام المتواترة تواترا لا حد له . وثمة سرقات – ولو كانت بسيطة – يُعاقَبُ عليها بالشنق أو بضروبٍ أخرى من العقاب . ولقد كانت السجون في كل مكان حتى القرن التاسع عشر أمكنة حقيقية للعذاب يتساقط فيها المسجونون صرعى الجوع والامراض السارية.

لكن أنجع هذه المؤسسات التخريبية بلا ريب الحرب لأنها تحقق إجمالاً ما تقوم به المؤسسات الأخرى تفصيلا . ان **هرم الاعمار** على كل حال يمنحنا أدق معيارٍ لنحكم إما على عدوان دولة من الدول واما على الشدة التي تُكْرَهُ بها على اللجوء الى المؤسسات التخريبية الأخرى .

وان **الهجرة** أخيرا – على رغم أنها ليست مؤسسة تخريبية

حقيقية – تؤدي الدور نفسه مع ذلك . ويقدر عدد الأوروبيين الذين غادروا القارة القديمة بين ۱۸۰۰ و ۱۹۱٤ بأربعين مليونا . وتفسر لنا هجرة الفتيان هذه ان القرن التاسع عشر كان نسبيا اكثر كل القرون سلاما .

والنفي من جانبه هجرة مقسور عليها : فهو يؤدي في بعض الاوقات دوراً عظيما في التاريخ الديمغرافي ونضرب على ذلك مثلاً في سيبريا واوستراليا . أما خسائر الحرب فهي تعادل هجرةً إلى الدار الآخرة . **قتل الاطفال المؤَخَّر – كل شيء يجري كأنّ ثمة علاقة توازن وتعويض بين مجموعة المؤسسات التخريبية من جهة ودور الحرب الديمغرافي من جهة أخرى** : فحينما تجعل وفيات الاطفال والمجاعات والبؤس الخ ... قليلا من الضحايا نسبيا تجعل الحرب كثيرا منها بوجه عام . وهذا النزوع الى وجود علاقة عكسية يوضحه تاريخ القرنين الأخيرين بوجه خاص .

وانما يبدأ التزايد السريع للسكان الأوروبيين بالتلقيح الجنّري (jennerienne) وضروب التقدم الاولى في الطب : فقد اصبح العرق الابيض اربعة أضعاف منذ ۱۸۰۰ على حين اقتصرت العروق الاخرى على أن أصبحت ضعفين . وباتفاق يلفت النظر إنما وقعت آنذاك ضروب كبرى من القتال بين البيض : كحروب الثورة والامبراطورية وحرب الانفصال ، والحروب المدنية الروسية والاسبانية دون الكلام عن حربي ۱۹۱٤ و ۱۹٤۰ . ويبدو أن النمو اصبح أسرع بكثير في آسيا اليوم . ويُخيَّلُ إلينا أنه يحتمل ان يَبْدُوَ سُكّانُ هذه القارة

ودولها بدورهم أكثر نزوعاً إلى الحرب ، إلاّ إذا أثروا – بعد إذ تحرروا من السيطرات والآثار الأوروبية – العودة إلى مؤسساتهم التخريبية التقليدية . وهذا ما يكشفه لنا المستقبل .

ذلك بأن اكتظاظ السكان أو الاختلال الديمغرافي المعاشي لا يؤدي إلى الحرب حتماً . **فهو ينزع نزوعاً محضاً إلى أن يَسْتَخْدِمَ مؤسساتٍ تخريبيةً ليست الحرب إلاّ حالة خاصة من حالاتها وأن يبعثها من مراقدها .**

وانا لنرى خلال التاريخ حتى العصر الحاضر غلبة نزوعين أساسيين بالتناوب على حسب الحضارات والبلاد والفترات : أوَّلُهُما يقوم على تعظيم وفيات الاطفال تعظيماً متبصراً بقتل الأطفال أو الإهمال . والثاني يقوم على وقاية الاطفال ورعايتهم ولكن يقوم من بعد على توجيههم نحو الحرب وهو **قتل الأطفال المُؤَخَّر** الحقيقي .

الفصل الخامس

الخصائص الإثنولوجية للحرب

١ . الحرب والعيد

يؤدي العيد دورا هاما في حياة كل الجماعات . وقد بين دركايم ان العيد من وجهة النظر الاجتماعية يهدف الى رصّ متانة الجماعة وتجديد ضروب الاحتكاك والاتحاد واتفاق الآراء بين اعضائها .

ويُظْهِرُ العيدُ عدداً من الخصائص الثابتة في كل انماط الحضارة :

أ) العيد هو عبارة عن **الاجتماع المادي** لأفراد الجماعة وما سواء أكان عيداً أوسترالياً أو احتفال مُسَارَّةٍ للحمر في المسيسيبي أو عيداً إفريقياً أو عيداً للألعاب الأولمبية أو لأسرار إلوزيس Eleusis أو عيداً فلامانكياً عاماً عظيماً أو عيداً للكرنفال .

ب) العيد هو **شعيرة تنفق فيها الأموال أو تبعثر.** فالجماعة تستهلك خيراتٍ كانت قد قضت زمنا طويلا في جمعها . بل تُتْلِفُها في الفرح أو

الهيجان أحياناً – لكن في التعظيم دوما (كالإراقة والولائم والإفراط في الاكل والشرب). والعيد ايضاً فرصة للأعطية : فالمقابلات والمنح تتكاثر وهي تُصْحَبُ غالياً باقامة سوق أو معرض وهي فرصةٌ تجديدِ الثياب وضروب الزينة وتقديم الهدايا والدعوةِ الى ضروب من التسلية والالعاب.

ونحن نجد دائما ان **المباهاة في التخريب** [١] مرتبطة من بعض النواحي بالحرب. فالشعوب تكون فخورة بخسائرها. وتشمل شعائر الظفر تخريبا رمزيا ما دوما لدى الشعوب المتنوعة تنوعا كبيراً. فقد كان حرق برسيبوليس (**Persépolis**) على ما يبدو عملاً رمزيّاً أو ضحيةً زائدةً قام بها الاسكندر قربانا لاله النصر. وفي روما انما خُنِقَ الرؤساءُ الاعداءُ الاسرى في سجن مامرتين **(Mamertine)** بعد الاحتفال بالنصر.

ج) يرافقُ العيدُ دائماً بهدم بعض القواعد الاخلاقية وترفع محرمات (**Tabous**). وتُباحُ اعمال أُلِفَ تحريمُها أو تُستَحَبُّ أو تُفرَضُ. وتشمل أغلب الاعياد الكبرى لدى البدئيين جانبا منكرا تؤتى فيه المحرمات الجنسية. وفي روما انما يأمر العبيد أسيادهم أثناء أعياد

---

(١) تقترب المنح وضروب المباهاة في التخريب والضحايا من بوتلاتش البدئيين. انظر ايضا : Georges Bataille, *La part maudite*, Paris, 1949. p. 92 et suiv.

الإله لوبركوس (Lupercales)[٢] ويستهزئ الجنود بالامبراطور (L'imerator). استهزاءً عظيماً.

د) العيد هو شعيرة تمجيد جماعي : فالرقص والشراب والغناء تولد حماسة مشبوبة وأفراحاً لا نظام لها واعمالا غير معتادة وألوانا من الهيجان والعنف.

هـ) يولد العيد شيئا من عدم الحساسية الجسدية : فيتحمل الافراد متاعب حينئذ ويستسلمون إلى نوبات غير مألوفة تصل الى ان تجعلهم يقبلون ضربات أو أنواعاً من الجذم والجدع. حتى اننا نجد في ايامنا هذه في زيارة العجم لكربلاء آلاف المؤمنين يطوفون في مواكب وهم ملطّخون بالدم الذي يسيل من الجروح التي سببوها لأنفسهم. وفي الهند نجد بعض المؤمنين يسحقون أنفسهم تحت عجلة الإله عند زيارتهم لشيوا (Civa).

و) يرافق العيد بالاضاحي لدى البدئيين وفي كل الحضارات القديمة. وقد تكون الاضاحي حيوانية وقد تكون بشرية في بعض الحضارات. وقد تكون الاضاحي جزئية أو رمزية على السواء، كما في الروايات المقدسة التي يقدم فيها بعض الممثلين أنفسهم الى الموت إما بأشخاصهم وإما بأن يستعيضوا عنهم بعبيد أو محكومين بالإعدام.

---

(٢) أعياد سنوية شهيرة في روما تقع في الخامس عشر من شهر شباط على شرف الإله لوبركوس - (Lupercus) (nouv, petit Larousse)

ما من صفةٍ واحدةٍ من هذه الصفات ليست في الحرب . حتى ليمكن القول بأن الحرب هي العيد الاعظم أو العيد الكبير المقدس بالمعنى الاجتماعي لهذه الكلمة . فهي التخريب نفسه دون تحفظٍ ولا اعتدالٍ على حين ان اشكال العيد الاخرى ان هي الاّ ضروب من الاقتداء الباهت بها .

فلنتفحص المظاهر الاساسية من تلك المظاهر التي تتقرب بها الحرب من العيد :

الصفة الجمالية للحرب . – تظهر أولاً في زينة المحارب . فإن أجملَ الأزياءِ التي ابتكرها الناس في كل الحضارات ما عدا الخمسين سنة الاخيرة ابتكرت لزينة المحاربِ . فالمعادن الثمينة وزينة الخوذة والريش والخُوَذُ اللامعة والاقمشة الزاهية والنقوش والترصيع بالاحجار الكريمة الخ ... كل اولئك حصتها المعروفة . فما إن يطوّف الانسان في متحفٍ للأسلحة والألبسة العسكرية أو يتصفح مجموعاتٍ مصورة من النسق نفسه حتى يطّلع على هذه النقطة .

إن السكان المحبين للحرب حبا عظيما لدى البديئين والحضارات القديمة مزجوا الحرب دوما بضروب من الرقص الجماعي . وانا لنرى ان السود حينما يعزمون على القيام بالحملات الحربية يستبقونها بالرقص دوما على وجه التقريب .

وعلى هذا النسق كذلك ذوو الجلود الحمراء سواء في ذلك الحمر

في امريكا الشمالية أم الهنود والبولبنيزيون . وقد مارست العصور القديمة اليونانية في شعائرها الرقص الحربي نخص بالذكر الرقص المصحوب بالسلاح في بعض الظروف . يضاف الى ذلك حُبُّ المشاهد الحربية والعرض والمواكب والطواف بالمشاعل الخ ... وللمعارك نفسها مظهر جمالي يقربها من المشهد . فالمعركة رقص خطير. ومن يشاهِد النقوش أو اللوحات التي تمثل معارك وبعض النقوش الآشورية أو أفاريز المعابد اليونانية حتى يبلغ لوحات فان درمولن (Van der meulen) [١] أو البارون غرو (Baron Gros) [٢] يقتنعْ بذلك .

الصفة المسلية للحرب . – ان الحرب تنتزع المرء من حياته المعتادة وتضعه في محيط مادي ونفسي غريب . وهي قبل كل شيء مصدر انفعالاتٍ لا يضاهى .

وحتى في العالم الحديث تمثل الحرب – في بداياتها على الأقل – صفة مسلية لا جدال فيها . فالفرد المستنفر أوّلاً يشعر بأنه في عطلة حقيقية وأنه قد انتزع من دنايا الحياة اليومية ومن عبودية حياة الاسرة والعمل . فلم يعد عليه ان يفكر في ضرائبه ولا في كرائه . وفي

(١) رسام فلامانكي ولد في بروكسل (١٦٣٤ – ١٦٩٠) تروى لوحاته ذات المناظر الواسعة التاريخ العسكري لعهد لويس الرابع عشر (المترجم).

(٢) جان انطوان البارون غرو رسام افرنسي ولد في باريز (١٧٧١ – ١٨٣٥) اعظم رسام لمعارك الامبراطورية مؤلف

(N. pet. Lar.) Champ de bataille d'Eylau & Pestiféres de Jaffa

التنظيمات الراهنة سواء أكان الانسان عاملا أو موظفا أو مستخدما لا يعاني الاّ خسارة مادية مصغّرة بتجنيده بما أوتي من نظام بارع للتعويضات وللتعويض عن الأجر.

وهكذا تقطع الحرب الحياة الرتيبة لجماعة دخلها استعمال الآلات. وقد رأى بعضهم ومن بينهم آ. هكسلي A. Huxley وبوجه خاص Lewis Mumford (٣) انه – من اجل هذه الاسباب النفسية – تنمو العقلية الحربية كلما أوغل المجتمع في استعمال الآلات وأصبح محكوماً بأساليب العمل الفنية. وقد قرر دركايم في كتابه عن الانتحار ثم هالفاكس أن نسبة المنتحرين من غير المحاربين زمن الحرب تهبط وسطيا عن ثلثي نسبتهم زمن السلم.

ويمكن ان نقول بعد الذي حدث في المانيا: ان هذه الاسباب تكون متمكنة تمكنا خاصا في البلدان الخاضعة لحكم مطلق. فهذا الحكم، اذ يفرض الاجماع ويلغي النضال السياسي والمباحثات الدينية والفلسفية والادبية ويرهق المواطنين بالعمل الاجباري وبنظام شرطي كالح، يضع حدا لكل مفاجئ وتسلية في الحياة. والمواطنون شعروا أم لم يشعروا لا يعودون يأملون الاّ في الحرب في سبيل التسلية حقا وقطعا للحياة النفسية الرتيبة وادخالا للمفاجئ في مصائرهم.

ان فكرة الغزو لدى البديئين تطوي معاً جولةً خطيرةً ونزهةَ صيدٍ

(3) Culture of Cities, New York, 1938.

اكثر اغواء من صيد الحيوانات حتى اكثرها ضراوة .

الحرب والمقدس . – ان تحوّل العقلات هو أول ما يلفت النظر بين الآثار التي تخلقها حالة الجرب . فالضغط الاجتماعي يتغير شكله . **وتتعدل موضوعات المقدّس والمدنَّس فتعاني حدودهما تغيرا سريعا** . فالقتل الذي كان بادياً بديٍّ محرّما تحريما عاما وقت السلم سرعان ما يصبح مباحا ومستحباً إزاء العدو.

وثمة محرمات أخرى ترفع كحماية ملكية الاموال والصحة الجسمية : حتى ان نهب أموال العدو واغتصابها يصبحان مقبولين في صور شتى . وكذلك يقبل غالباً الخطف والسبي بوجه خاص في صورة واضحة أو غامضة .

ان استحالة القيم التي كان يتمناها نيتشة تبعثها كل حرب بعثاً منتظماً مباشراً . فكل حرب تجعلنا نلج منذ إعلانها **عالماً أخلاقياً جديداً** .

وهذا هو الوجه الآخر للاحساس الوهمي الذي يتقاسمه الناس والذي يميز الحياة الاجتماعية في اشتدادها

المانوية النفسية . – اذا كان معنى **صديق** (ami) **وعدو** (**ennemi**) غامضاً زمن السلم أخذت كلمة **عدو** ennemi الدلالة البدئية **للحاقدين** زمن الحرب : فالصداقة أو العداوة التي تعرض في الحياة كثيراً من التغيرات والتناقضات لا تعود تلبس الا

شكلها الحاد جدا ، هذا الشكل الذي يسوق الى الحل النهائي دراكا . فمن الآن ومن بعد ينبغي للمرء أن يقتل عدوه ويضحي بنفسه تضحية كاملة في سبيل اصدقائه فلم يعد ثمة منزلة بين المنزلتين.

لقد حل تارد في مخطط عام هذه الحالة في نظريته عن **النزاع المنطقي الثَّنَويّ**. فقد لاحظ انه حينما يكون ثمة كثير من النظريات أو كثير من الميول المتباينة يدوم هذا الاختلاف ما دامت العلاقات سلمية . ولكن حينما تشتعل نارُ الحرب سرعان ما نرى انه لا يعود هنالك الاّ فريقان .

وعلى هذا النحو ينتج النزاع تبسيطاً منطقياً شديداً للتعارضات يحيلها التزاماً باختيار واحد من حدين .

حينما تقوم احدى الجماعات بالحرب في سبيل منازعة حول النفوذ على سبيل المثل لا يمكن للنزاع ان يبقى محدودا بشفا هذا الخلاف الأول . فهو يمتد في كل المجالات وسرعان ما يصبح حربا معاشيةً وسياسية وفنية وفكريةً الخ ... في الوقت نفسه . ان ألوان النشاط والمعتقدات تنتهي بأن تستقطب حول بعض الموضوعات الثنوية (١) . فالحرب تفرض **عقلية مانوية**.

٢ . شعائر الحرب وشعائر القرابين

هذه فكرة تسيغها كل العقليات البدائية ، وهي ان الآلهة تطلب أن

(١) ولو سمّي رجل باثنين أو باثنَيْ عشر لقلت في النسبة إليه ثَنَوِيٌّ (لسان العرب) .

تُنْزَعَ لأجلها أرواحُ بعض الأحياء : وهذا هو القربان . ولكن ما هي علاقة الحرب بشعائر القرابين؟

في بعض الحالات – نضرب على ذلك مثلا الآزتيكيين أو شعوب الاوقيانوس الكبير – يكون سبب الحرب الرغبة في الحصول على الضحايا التي تتطلبها الآلهة . وفي حالات اخرى – نضرب على ذلك مثلا الآشوريين وأغلب الحروب الدينية أو العقائدية (الايديولوجية) – ترتبط الحرب بالضحية إرتباطا غير مباشر : فهم يعتقدون بأن الحرب بمجموعها تؤلف نوعا من التضحية الجماعية وبأنها في النتيجة تسر الآلهة . فأسفار التوراة والكتابات الآشورية وبعض سور القرآن صريحة جدا .

والشيء الذي يثير الدهشة أنه على حين تميل **عبادة الاموات** في الأديان الحديثة الى الانطفاء تعود الى الظهور بوضوح بمناسبة الحرب . فهي تؤلف أحد آثارها النفسية . ونلاحظ في ايامنا هذه أنه بتأثير القومية اصبحت أغلب الشعوب تميل الى تبني انواع من الديانات الوطنية تقوم على عبادة المحاربين الذين قُتِلُوا في الحرب الاجنبية أو المدنية . فيصبح كل واحد منهم شهيدا . وهكذا تميل عبادة الابطال الذين سقطوا وسلاحهم بأيديهم – كما أعلن نيتشة – الى أن تحل محل عبادة القديسين . ومن وجهة النظر الاجتماعية ثمة مجال للبحث عما اذا لم تكن المراعاة المتغيرة **لشعائر الموت** وللحَضّ على الموت ميتة عنيفة أو على القتل بوجه خاص مترابطةً مع متحولات اخرى . فلربما ارتبطت

الصورة التي يعامَلُ بها المغلوبُ بمجموعة من الشروط الديمغرافية – الاقتصادية. وهكذا يلاحظ على وجه العموم أن الشعوب التي تعيش على الصيد تقتل أسراها لأنها في حاجةٍ إلى أراضٍ شاغرةٍ واسعةٍ حيث يستطيع الصَّيْدُ (١) أن يتناسل.

خلافا لذلك نرى ان المجتمعات الزراعية والصناعية التي تمارس تقسيم العمل وتعوزها اليد العاملة تستبدل الاسترقاق أو القنانة بتذبيح المغلوبين.

ان أثر النزعة الآلية الراهنة يفسر لنا الضخامة المتفاوتة لمجازرنا. – فلم يعد ثمة – في ايامنا من فوائد اقتصادية في تدبير رأس المال البشري الفائض عن الحاجة دوما. واخيرا كما أن أعلى شكل من أشكال السلطة هو الحق في القتل نجد غالبا ان قيمة قضية ما تقاس بعدد الميتات العنيفة التي سببتها. ونرى ان كل فكرة مثالية بعثت ضحايا وشهداء تتخذ قيمة ذاتية. ولا يهم كثيراً (والمرء يكره على تقرير هذا الامر اذا شاء ان يكون صادقا وموضوعيا) ان كل القضايا – أحسنها واسوأها على السواء وأكثرها جنوناً وأكثرها تعقلاً كذلك – تبدو أهلاً لإنتاج ضروبٍ بطوليةٍ من الإخلاص. وقد قال تروتسكي Trotsky مجيبا في خُطبةٍ له كوتسكي Kautsky الذي كان ينادي بحرية الصحافة: «إن الافكار التي يراق من أجلها الدم

(١) والصَّيْدُ ما تُصَيِّدَ (لسان العرب).

تصبح بهذا العمل مطلقة ، ولا يمكن في الوقت نفسه بحثُها بحثَ حقائقَ نسبية تمكن مقابلتها بغيرها بسهولة » . هنا نجد نموذج الاستدلال الميت بعينه : إن حالاتِ الهَلاك تعتبر معيارا ممتازاً للحقيقة المثالية .

الفصل السادس

الخطوط النفسية للحرب

١ . الدوافع الحربية والعدوان

ان الجماعات البشرية تنساق في بعض الاحيان بدفعات من الدوافع الحربية . وهذه الدوافع تقوم - كما رأينا - على حالة نفسية جماعية تدفع معظم افراد الجماعة الى تمني الحرب أو الى قبول فكرتها على الاقل .

ان خصيصة المجتمعات الانسانية ان تتوقع حدوث الحرب دائما . ولكن هذا لا يعني انها تتمناها في كل لحظة . فان من كان حربي النزعة البارحة يمكن ان يفضل السلام اليوم وقد يسترجع يوما تعطشه للقتال الذي أُخْمِدَ مؤقتا .

ولكن ما هي ضروب التأكيد والاستدلال التي ينشأ من خلالها في الشعور الجماعي الاقتناع بأن حربا ما لا بد قائمة في لحظة معينة ؟ وكيف تنبعث الرغبة في الحرب لدى القادة والشعوب وفي أي الشروط تنبعث ؟

ان سلسلة من الابحاث التي اجريت في الولايات المتحدة تقومُ مقامَ نقطةِ انطلاقٍ في تَقَصِّينا : فانها تظهر **العلاقات الوثيقة القائمة بين العدوان والحرمان** . ان الشعور بالحرمان ينشأ حينما تعرقل عقبة ما تحقيق امنية لنا أو تمنعنا من اصابة هدف . ونَحْنُ نُشاهِدُ أن الغضب الذي يسببه الحرمان والذي يترجم عن نفسه بالعدوان **لا يتجه دوما الى المسبِّب للحرمان** . وهكذا نرى ان التابع الذي وبخه رئيسه يفرغ جام غضبه على زوجه واولاده .

وقد استطاع ليفين (K. Lewin) وتلاميذه كذلك ان يجدوا ترابطا احصائيا حقيقيا بين تقلّب سعر القطن وعدد جرائم القتل . وبعبارة اخرى ان الحرمان الاقتصادي يزيد العدوان الذي يتبدى ضد العنصر الاضعف . وفي الحياة السياسية يسبب العدوان استياء تجاه الطبقات الموجِّهة أو الادارة أو الحزب في السلطة . ثم ان الشروط الاقتصادية السيئة وانخفاض مستوى المعيشة والبطالة الخ ... تترجم عن نفسها في البلاد الديمقراطية بنجاح المعارضة . وقد أبانت تعدادات حصلت في **الغرب الاوسط الامريكي** (Middle West) ان الحزب السياسي الذي تكون بيده السلطة يخفق في الانتخابات في فترات الجفاف بوجه عام . ومن المناسب مع ذلك ان نلاحظ ان ردود الفعل على الحرمان يمكن ان ترتدي في بعض الظروف شكلا يمكن ان نسميه شكل **اكتئابٍ أو إعياءٍ** (dépressive) فيحل الخضوع اذ ذاك محل حب

العدوان ولكن يحدث عندئذ ارتكاس عقلي لدى الافراد الذين يغودون الى عقليةٍ أدنى وأكثر بدائية.

اذا لاحظنا الفرد على حدة فلا ريب ان حب العدوان لديه مقترن بـــالـــقوة الجســـمـــيـــة (home malus، puer robustus) عند كل الحيوانات. بما فيها الانسان نجد ان الصغار من الذكور مهتاجون ومحبون للقتال بوجه خاص. ومع ذلك تأخذ الاشياء وجها آخر حينما نفحص ردود افعال حب العدوان الجمعي: فما إن يجد الانسان نفسه بحضور رهط حتى تصبح ردود افعال العدوان اكثر انتظاما وتبدو كأنها تشارك بآلية لاشعورية. ويمكن ان نستخلص منطقيا ان هذه الآلية تصبح اكثر بروزا كلما كان الرهط اكثر عددا. ولقد استعين بظاهرة اجتماعية ادهشت كل السابقين في علم الاجتماع بوجه خاص: تلكم عدوان الجماعات (كالسلب والقتل والانفجارات من كل الانواع حيث نرى جماعات يتملكها الغضب فجأة فتكسر وتخرب وتغتال الخ ...). ومع ذلك ان دراسة واعية تظهر ان الجماعات بطبيعتها منفعلة ومطيعة ومتوافقة. وحينما تبدو عنيفة يكون هذا العنف على وجه العموم نتيجةً لتوجيهٍ مذهبيٍ سابقٍ أو موقفٍ اتفاقيٍ كما يحدث في احتفالات الوجد والانخطاف او التهتك كما في الكوروبوري أو التام تام البدائيين. إن المشتركين فيها **يعلمون سلفاً** أنهم مرتعدون.

ان الذي يميز الدافع الحربي الجماعي – في مقابل النزعة العدوانية لفردٍ أو رهطٍ – هو قبل كل شيء عمقه ومدة دوامه . والقول بأنه **حالة نفسية** أولى من القول بأنه عمل مباشر من أعمال العنف . إنه الشعور بضرورة فترة من النضال والتخريب . إنه اقتناع لا يسعه الاّ أن يكون خضوعاً مجرداً لمصيبة تعتبر لا بدّ منها . اما موضوع الحرمان فيرتدي الاشكال غير المتوقعة على حسب معتقدات الرهط حينما يتعلق الامر بدوافع حربية . فالأمة برمتها يمكن أن ترى نفسها محرومة لأنه يعوزها لقديس غرايال (Graal) أو لأنها تريد أن تحتل **الأماكن المقدسة** . ويمكن ايضاً أن تقتنع بأنه لا يطاق ألاّ تملك منفذاً على بحرٍ من البحار أو آباراً من البترول . ويمكن ايضا الاّ تحتمل ان جيرانها يملكون مؤسسات او معتقدات تختلف عن مؤسساتها أو معتقداتها .

وهذا التنوع في الاسباب القابلة لتغذية حب العدوان الجماعي هو الذي يحملنا على الاعتقاد بأنها ما هي الا ذرائع **أو أسباب اتفاقية وجبةٌ** على الأصح . وهذا هو السبب الذي يبدو لنا هذا التحريضُ لأجله خدّاعاً في أغلب الاحيان . إنه **خِداعٌ ذاتيٌّ** . فيجب اذن ان نبحث عما اذا كانت هذه النزعة العدوانية لا تملك أساساً من الأبنية الدنيا أكثر صلابةً وأشد ثباتاً .

التحليل النفسي للدوافع الحربية . – لقد حاول بعضهم – ليس من غير نجاح – ان يصل الدافع الحربي بعقد من صلب منهج التحليل

النفسي. ومن بين هذه العقد عقدة الإخفاق وعقدة الإثم ومشاعر القصور بأشكالها جميعا.

ان **الشعور بالإخفاق** مقترن غالبا **بعقدة الاثم** الطبيعي أو الميتافيزيائي. وهو يقود الى تشخيص الإخفاق وخيبات الأمل والمصائب. فنسعى الى ان نخلع على الآخرين مسؤولية حادثٍ يجرحنا ونحن نريد أن نجهل سببه الحقيقي. إن شعور الانسان بأنه آثم – من جهةٍ أخرى – يُعَرِّضُهُ لانتظار جَزَاءٍ من المصير أي لقبول المصيبة قبولاً مظلماً إن لم يعرضه للتوق اليها. وفي حالاتٍ أخرى تميل عقدة الإثم إلى الإعلاء: فَتَتَحَوَّلُ إلى بطولةٍ، فيصبح الشخص مخلصا لمحيطه ولعلمه ووطنه الخ... ولكن حتى في ذلك الوقت تبقى هذه البطولة غالبا ممزوجة بعناصر معكرة تأتي من منشئها. فيتوق البطل الى التضحية ولكن لكي يستحق زيادة في العقاب يمكن أن يتجه إلى جرائم جديدة: «إن بطل الحرب مثلا يمكن أن تكون له نفس مزدوجة لضحية وقاتل، فهو شهيد يَقْتُلُ: إنه يتحمل في آنٍ واحدٍ التضحية والجريمة تحت شعوره، وهذه الجريمة تعطي التضحية تسويغاً زائداً [1]».

اما **مشاعر القصور** فيمكن ان يكون لها منابع عديدة حللها آدلر واوليفيه برشفلد Olivier Brachfeld تحليلا يدعو الى

(1) Alexandre et Staub, *Le criminel et ses juges*.

الاعجاب . والأثر الأساسي لمشاعر القصور هذه أنها تثير الرغبة الطاغية في **التعويض في** معظم الحالات : ان كبرياءنا تدعونا لأن نسعى الى تعزية انفسنا عن عيُوبنا بتنمية ما نملكه من ميزاتٍ.

فالشعب الذي يشعر بأنه أقل مدنية أو ثراء من جيرانه يعمل مثلا على تنمية قوته الوحشية للتعويض . ويمكن ان يكون اساس الدافع الحربي أحياناً **الشعور بعدم الامن** المسيطر في العالم المعاصر. فان مثل هذا الشعور قد يقود الافراد الى تفضيل الحقيقة الفاجعة على أن يعيشوا في خوف دائم . وهذا ما يمكن أن يسمى عقدة داموقلس (Damo Clés).

لقد حاولنا في موضع آخر (٢) ان نظهر ان كل جيل يجد منبع اتجاهاته النفسية الاساسية في العقد الناتجة عن الواقعات الاجتماعية والتاريخية التي أثرت في طفولته تأثيرا عميقا . وهكذا أن كل جيل صاعد يتميز بالحوادث التي تلائم سن الرشد أو النضج لآبائه . وهكذا تتهيأ أيضا ردود الافعال العاطفية . إنها تولد من العقد التي تنميها **الصَّدَمات** Trauma الناتجة عن الحوادث الواقعة في الطفولة . فالحرب – من بين كل الاضطرابات الاجتماعية – خصبة في فرص **الصَّدَمات** على وجه الخصوص . ولكنها ايضا في آن واحد الحل الفاجع والشهي الذي تتجه اليه اكثر عقدنا الجماعية شدة .

---

(2) *L'invention,* p. 467 et suiv.

٢ . انواع سلوك المحاربين

ان خصيصة الحرب ان **تدخلك عالما نفسيا آخر** ادخالا مباشرا تكون فيه القيم مقلوبة والعقلية في ثورة . ان هؤلاء الذي كانوا يكرهون محكَم الإعدام ويؤذيهم قتلُ أسوأ المجرمين اصبحوا يجدون ارسال ملايين الشبان الابرياء الى المجزرة أمرا طبيعيا . والمقتصدون «١» اللذين كان يغطيهم أقل تبذير اصبحوا يجدون تهديم مدن بكاملها وتبديد المليارات بدون جدوى أمرا طبيعيا . والعقول المعتادة على النقد والحرية تتبنى تبنيا سريعا الطاعة السلبية والقدرية والخضوع الأسوأ الخ ... ويتحول عالم العلاقات الاجتماعية فيبدو لنا مختلفا تمام الاختلاف عنه في وقت السلم .

كما نميز علم نفس الغالبين من علم نفس المغلوبين ، ينبغي **ان نميز مبدئيا علم نفس المهاجِمين من علم نفس المهاجمين**. وَلْنَتَّضِحْ.

أنّ التمييزَ غالبا صعب لأن غاية فن رجال الحكم أو المؤرخين هي خلط الخرائط واظهار حروب الاعتداء بمظهر دفاعي شرعي . ولكن يبدو لنا ممكنا ان نتلمس ان نية الاعتداء في المعسكرين أقوى دوماً في أحدهما .

يمكن أن يكون المحارب **مجنداً** أو **مأجوراً** أو **متطوعاً** كما يمكن ان يكون أخيراً **متعصباً** . اما المجند فان الشيء المسيطر على تقسيته هو

---

(١) أو أمناء الصناديق .

الخضوع الذي قد يكون مصحوبا أو غير مصحوب بالثبات والشجاعة والسخط الخ ... وأما المأجور الذي يجعل من الحرب صناعة له. فأنه يرغب في ممارستها بأكبر فائدة وأقل مخاطرة ممكنة. فالحروب التي تتلاقى فيها جيوش محترفة هي الحروب التي تكون قليلة الضحايا بين الجنود على الاقل. ان المثل الذي يجلي احسن إجلاءٍ هذا الميل هو مثل الجنود المأجورين في عصر **البعث** الايطالي أو جيوش «سادة الحرب» الصينيين الحديثين الذين كانت غزواتهم ضاريةً داميةً تنصب على السكان المدنيين وحدهم فتمهر في سلبهم وطلب الفِدْية منهم وردّهم عبيداً، الخ ...

أما حالة المتطوع فهي أكثر تعقيداً. لا شك ان الحرب في نظر هذا جذابة دون جدال لأنه يقبل المشاركة فيها بملء رضاه. ولكنها ليست غاية في حد ذاتها. ان المتطوع يدخل في نزاع في سبيل الدفاع عن قضيةٍ من القضايا. والنموذج الحقيقي للمتطوع هو ذلك الذي يدخل في نزاع معين ثم يرجع الى بيته عند نهاية الحرب شاعراً بأنه أدّى واجبه.

اما من وجهة النظر العقلية فان الجندي يتحرر من عبء الحيرة والتردد - فواجبه واضح دائماً. يقول الفرد دوفيني (Alfred Devigny) : «حيثما كانت سريتي كان واجبي». وهو يشعر أيضاً بأنه يمارس مهنة نبيلة. فهو محاط باعتبار مواطنيه واعجابهم احيانا وبالرهبة التي تدعو الى احترام السكان حينما يكون في بلد عدو. والجندي الشاب أخيراً يمثل الذروة العليا في **الجاذبية الغزلية للنساء**.

٣ . المحاربون ونظام الطبقاتِ الاجتماعي

ان حمل السلاح ميزة للطبقات الموجّهة التي يتقمصها دائماً الجنود كثيراً أو قليلاً لأنهم تعبير عنها . فأحد الأسباب الرئيسية لعقدة القصور في المرأة — في نظر سيمون دو بوفوار (Simon de Beauvoir) وأوليفيه برشفلد Olivier Brachfeld — هو كونها لا تشترك في الحرب : « لا يكون التفوق في الانسانية للجنس الذي يلد بل للجنس الذي يَقتُل » . إن اتجاه البطولة الخالصة الذي أصبح نادراً منذ عهد الفرسان الرَّحَّالِينَ عاد إلى الوجود منذ بداية القرن التاسع عشر مع الروبنسية . انها مؤلفة من حب المخاطر وكره الحياة العاقلة المرتبة في الوقت نفسه . ان اختيار المخاطر الحربية صورة يتخلص بها شاب معذب الفكر بقلق في ما وراء الطبيعة من هذه المسائل المعذِّبة . إنه يقود من يمشي في هذه السبيل الى الاعتقاد بأنه اداه القدر ينضاف الى ذلك نوع من سكر التاريخ الذي يفسر كل واحد على طريقته وفي سبيل مجده الشخصي العظيم . فالميول الرومنسية كما نراها عند هواة البطولة مثل شاتوبريان وبيرون ودانونزيو (d'Annunzio) وبارس (Barrés) تمهّد المخلصين لها تنمية الوحي أي اعتبار دوافعهم في التحليل الاخير — آتيةً من العناية الربانية يمليها الله املاء مباشرا . وأقوى دوافعنا جميعا والحالة هذه إنما هو الدافع الحربي لأنه جماعي . ان مثل هذه العقلية صالحة صلاحا لا حد له لتنمية الحروب .

وفي الحروب وجه اخلاقي لا جدال فيه . حتى ان اشد الناس حبا

للسلم لا يسعه أن ينكر أن الحرب تطري فضائل مؤثرة ونبيلة : كالشجاعة والاخلاص والامانة والصداقة بين المحاربين والشرف . لقد شعرت الانسانية دائما في كل اشكال الحضارات بهذه الفضائل الاخلاقية للحرب واشترت بها ثمنا كبيرا جدا .

ان المجتمعات التي يسود فيها نظام الطبقات المغلقة أو نماذج من سلسلة المراتب التي تميل الى نظام الطبقات المغلقة تعتبر الفضائل الحربية خاصة بالطبقة التي يكون افرادها جنودا أبا عن جد . ان هذه الطبقة تحافظ بعناية فائقة على مشاعر الشرف والرجولة والبطولة وتتصرف كأنما هي مؤتمنة على هذه الفضائل . وتأتي طبقة المحاربين في الاساطير الهندوسية بعد طبقة البراهميين اتيانا مباشرا وبين اعضائها إنما يُختارُ الأُمراءُ والملوك بوجه عام . وما يُسَوّغ البناءَ الإضاعيَّ نفسه هو الإقطاع العسكري . فالأراضي موزعة بين اسر المحاربين لكي تمكنهم من القيام بالخدمة العسكرية في سبيل الملك أو من القيام بالدفاع المحلي عن الفلاحين. حتى الشعوب المعروفة بنشاطها التجاري بوجه خاص تبجل الشجاعة العسكرية وترى غالبا في هذه الحالة تتويجا للنجاح التجاري : ففي البندقية Venise كان ابناء الارستقراطية التجارية غالبا ضباطا في الجيوش أو في أساطيل الجمهورية ، كما كانت الطبقة البورجوازية في الجمهوريات والحكومات الديمقراطية – مثل بورجوازية لويس فيليب وفيكتور عمانوئيل والجمهورية الثالثة والمانيا الولهلمية – شديدة الرغبة في تولية أبنائها الدرجات العالية في الجيش .

ولكن إلى أي حد تكون عبادة الفضائل الحربية الخاصة بكل الطبقات الارستقراطية والتي يهفو اليها الشبان في جميع الطبقات أحد أسباب الحرب؟ يمكن ان ندرك جيداً انه ليس ضرورياً أن تكون الارستقراطية العسكرية مع ذلك مقاتلةً. فقد تبقى متلفعة بكبريائها راضية عن نفسها وتعتبر أنها قد برهنت على نفسها وحصلت في ماضيها على قدر كاف من المجد يجعلها في غير حاجة للبحث عن انتصارات جديدة كالاسبارطيين الذين انتهوا بأن اصبحوا شعبا مسالما.

إن طبقة المحاربين المظفَّرين الذين ينعمون بثمرات نصرهم **ومكانة كبار المستهلكين** التي وضعهم فيها هذا النصر يمكن ان تكون مملوءة بالرقة. ولكن الحياة العسكرية من أجل الطبقات السفلى بوجه خاص مملؤة بالمضايقات والقسوة. فالمعاملةُ السيئةُ في حياة المعسكر وأعمالُ السخرةِ والتمرسُ بالقسوةِ وعدمِ الاهتمام بآلام الآخرين، كل ذلك هو الشيء الاساسي الذي يستعمل في ترويض الشبان من المجندين. حتى ليمكن القول: ان زوال العادات الطيبة للقرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ بظهور الخدمة العسكرية وامتدادها. وقد أعلن رنان (Renan) قائلاً: «إن أيَّ إنسان يمر بحياة المعسكر يفقد روح النعومة على وجه العموم». إن الحياة العسكرية تنمي **روح العنف** قبل كل شيء. انها تخلق – مع الشعور بالخطر – الرغبة في التمتع بالخيرات سريعا دون مراعاة أي شيءٍ أو أي شخص. «إن الوقت ليس له وجود في نظر الدي يعيش من دقيقة الى دقيقة أو من معركة الى معركة. ان

تعويضات المستقبل تصبح خيالية وهمية ، ولذة اللحظة الحاضرة هي وحدها التي تتمتع بشيء من اليقين ، واذا استعملنا تعبيرا ملائما ملاءمة مزدوجة ها هنا قلنا : ان كل تمتع هو ربح على العدو. فمن ذا الذي لا يشعر بأن هذه القُرْعة (١) على اللذة والموت قُرْعة مُفْسِدَةٌ بالضرورة ؟ » (٢)

٤ . سلوك القادة

ان الدور الذي يؤديه القادة في الحروب قد أثار ولا يزال يثير قدرا من المناقشات أكبر مما اثاره دور المحاربين. وان من اكثر مسائل علم الاجتماع تعرضا للنقاش معرفة ما اذا كان القادة لا يعملون الا بوحي من الدوافع والرغبات المختلطة للجماهير أم انهم – على النقيض – يفرضون عليها نظرات اصيلة فرضا فعلياً . هنا يجب التمييز الاول بين طبقة القادة والصفوة فالأولى تمارس سلطةً فعليةً ولكنها لا تملك بالضرورة تفوقا عقليا ولا فنيا تطبيقيا على الجمهور. ولهذا السبب يجد الجمهور نفسه في قادته خيراً مِمّا يجدها في صفوته . بل الصفوة – على النقيض – تختلف عن الجمهور. فهي تتألف من رجال يملكون معارف أوسع وُهِبُوا فكراً مبتدعاً ونشاطاً أعلى من المتوسط ولكنهم لا يُمارسون أي سلطةٍ على الاغلب .

---

(١) والقُرْعةُ النُّهْمةُ (لسان العرب) .

(2) Benjamin Constant, *De l'esprit de conquête.*

ان هذا التفريق الذي وُضِعَ بأوضح شكل من قبل سان سيمون يتيح الاعتقاد بأن القادة يتبعون على وجه العموم العقلية المحيطة أكثرمما يسبقونها أو يعدّلونها. لقد كان تولستوي Tolstoi يقول: اذا كانت الامة جميعها مسالمة فمن غير المعقول ان تكفي رغبة رئيس أو قلة قليلة حتى تجرها الى حرب جرا حقيقيا. لقد كان هذا ممكنا تصوره بافتراض الأسوأ في عهد الحروب الملكية حينما كان الامراء يقاتلون بجيوش صغيرة من المأجورين ولكن الشكل الواسع لضروب النزاع المعاصر يتطلب المشاركة القلبية ان لم تكن المشاركة الحماسية لمجموع الامة. ويمكن ان نسلم ايضا بأن القادة ليسوا ابدا السبب المطلق للحرب ولكنهم دوما لا يملكون الا أن يستجيبوا **للأمنية الخفية لشعوبهم** ولا ريب ان الامور حينما تسير سيرا سيئا يتحمل القادة الوزر الجماعي

كالجحود المتأخر لهتلر وموسوليني في عصرنا. ولكن التاريخ يرينا ايضا ان رؤساء الدول الذين جنحوا للسلم جنوحا فرديا وقاوموا الدوافع الحربية المحيطة عوقبوا غالباً عقاباً قاسياً على فعلهم: فان سكوت لويس السادس عشر في حرب الاستقلال الأمريكي يشير الى بداية فقدان شعبيته، كذلك مسالمة لويس فيليب اثناء توتر العلاقات مع بروسيا.

ان الحرب في نظر رجل الدولة **حل سهل** قبل كل شيء. فحينما.

تلتبس الحالة الداخلية وتستعصي لا يمكن توضيحها الاّ باعلان الحرب. فالحرب تعني من بحث اتفاقاتٍ شاقةٍ طويلةٍ ومن توفيق منافع

متعارضةٍ. ويمكن أن نُغربَ فنقول بأن الحرب نهاية الخصومات: فيحدث القتال غالباً من شدة كرهنا للخِصام.

إن الحـ ب راحة الحكومات. حتى حينما تكون الحكومات ديمقراطية تتيح الحرب لها فرض السكوت والخضوع والطاعة المنفعلة وانواع من الحرمان على مواطنيها الذين أصبحوا والحالة هذه تابعين. فتُعلَّقُ الانتخاباتُ ويصبح الرؤساء لا يمكن عزلهم.

والحرب ايضا حل مُغْرٍ للحكام. فما إن تعلن الحرب حتى يصبح أقل رجال السياسة شأناً ممن بلغوا السلطة نوعا من الكاهن الجليل المكلل بالنور. فيموت المقاتلون باسمه. والواقع ان ظاهرة تبلور تحدث من جانب هؤلاء: فيصبح الرئيس موضوع غيرة وتعلق. حتى لو كان قاسيا فاسقا مثل يوليوس قيصر أو محتالا عديم الشفقة مثل هانيبال فان النصر يكفل له حب جنوده العميق. وهاهنا لا جدال اننا نجد انفسنا امام ظاهرة دينية: فالحرب تقدس الرؤساء. وفي روما، كان الرئيس العسكري محاطا بالكهان والعرافين. وكان يقدس ويضحي هو نفسه في بعض الاحيان. وكان فارس المستقبل في العصور الوسطى يستغرق في التأمل في **سهراتٍ للسلاح** تحف بها الاسرار. ثم إن ترقية الضباط الشبان في ايامنا هذه – حتى في الامم التي تعلن العلمانية الرسمية – تحاط باحتفال تبجيلي مؤثِّرٍ.

وانا لنجد اخيرا عند رؤساء الحرب عند هؤلاء الذين يمارسون حكما مطلقا ظاهرة يمكن ان نسميها **عقدة ابراهيم** (Abraham).

ان كل حكم مطلق يدعو صاحبه الى حياة صوفية داخلية. وسيكون منقادا انقيادا لا مفر منه الى الالتجاء الى الوحي بالمعنى الصوفي للكلمة في اللحظات التي تزعجه فيها مسؤولياته. والحكم المطلق من جهة اخرى يملي اتجاهات نفسية أبوية في النطاق الذي يكون فيه الأبُ رئيسَ القوم المطلق التصرف وحَبْرَهُمْ. **والسلطان الأبوي والحالة هذه يصل ذروته عندما يأمر الأبُ بتضحية ولده** دون أن يفرق بين الولد الطالح والصالح، وفي هذا تعارض أو تناقض وجداني أشار إليه التحليل النفسي، وهو قربان نفيس وضحيّة لا مثيل لها يتقرب بها الى الآلهة. إن تضحية ابراهيم هي النذر الرفيع الشأن لعمل أو سياسة ما. كذلك ايفان الهائل وبطرس (Pierre) الكبير بعد جفته (jephté) وآغا ممنون (Agamemmon). ان الحرب تقوم بهذه الوظيفة قياما غير مباشر: فان الرئيس يرسل الى الحرب ويضحي فيها خيرة ابنائه. ثم ان المحاربين من جهتهم كلما احبوا رئيسهم وأعجبوا به انتظروا ان يأمرهم بتضحيات غريبة.

يبدو أن عقدة إبراهيم تقدم ايضا معنى آخر: ذلكم ظاهرة النزاع بين الأجيال (١). فجيل الآباء أو جيل الأشخاص المجربين الهادئين الذي يطغى عليه شبابٌ طموح ثائر يفوق عدده القدرة على إرضائه

---

(١) هذا النزاع بين المسنين والفتيان الذكور معروف لدى الحيوانات معرفة جيدة.

وتوظيفه ينزع بوعيٍ أو غير وعيٍ إلى أن يرى الدواء لهذه الحالة الخطرة في الحل الحربي.

٥. النتائج النفسية للحروب

يستفيد علم الحرب الاجتماعي فائدة كبرى من تحليل انواع السلوك النفسي الفردي والجماعي التي تتبع السلم على صورة مباشرة.

وحينما نتكلم عن نتائج حرب من الحروب يجب ان ننتبه دوما الى أن ثمة غالبا ومغلوبا على وجه العموم. ولكن هنالك درجات في الهَزِيمَةِ كما في الظفر. وتمضي هذه الدرجات من الاستسلام التام للغالب أو من معاهدة التسليم دون شرط كما في العبارة القديمة: «أَنْ يُفَوِّضَ المغلوب أَمْرَهُ إلى رحمةِ الشعبِ الرومانيِّ» الى مجرد القبول بمعاهدة تكفل قليلا من الحقوق للغالب. وهذه الاختلافات توجد حتى لدى البدائيين.

ان الوظيفة الحقيقية للحروب تظهر في الحروب التي تنتهي بعودة إلى الوضع الراهن ولا تفضي إلى شيءٍ خيراً مما تظهر في الحروب التي تعدّل الاوضاع تعديلا عميقا. ويكدُّ المرءُ عبثاً في البحث فلا يشاهد إلاّ أن الدور الذي تؤديه الحروب لم يكن غير التهام ما فاض من طاقاتٍ وما فضل من خيراتٍ ومن زاد من ناسٍ.

من وجهة النظر النفسية نجد ان العمل الوحيد الجديد الناتج عن الحرب في هذه الحالة هو أن **النزعة العدوانية عند الافراد أي نزعة**

القادة والمحاربين الأكثر شدة على وجه الخصوص قد انتهت. وفي الحروب الحديثة يمكننا أحياناً أن نحدد الوقت الذي يبدأ فيه الدافع الحربي والتعصب اللذان يرافقانه بالزوال. ان حلول التراضي التي كانت تبدو غير مقبولة في البداية يمكن الآن مواجهتها بدون اشمئزاز.

ان نهاية الحروب تحدث شعورا بالارتياح شديدا وفجائيا. وان هذا الشعور ينطبق اولا على المحاربين الذين يرون فجأة زوال التهديد الذي كان مسيطرا عليهم، فيسبحون جميعا في الفرّح للمغامرة المثيرة التي لم تتم على صورة سيئة سوءا بالغا. وفي الوقت نفسه تخف أثقل الواجبات العسكرية: فيُسَرَّح بعضهم، والآخرون يفرغون من الشُّغُل.

في البلاد الغالبة يمكن تفسير الشعور بالارتياح بسهولة: فقد بلغت اهدافها. وهي تتوقع من النصر أن يُضَمَّ إليها ولايات وتنتظر منه تعويضاتٍ وفوائد يفيد منها قسم كبير من المواطنين، ولكن حتى المغلوبون يترقبون قدوم السلام بارتياح اكبر احيانا. فإذا كانت أرضهم قد اغتصبت أملوا في الجلاء وانتظروا نهاية الاستيلاء وعودة الأسرى ورفع الضغط.

إنما بدهي أن هذا الابتهاج لا يدوم طويلا. ذلك شيء حقيقي بوجه خاص حينما تُحْدِثُ الحربُ تخريباتٍ مادية يبلغُ عِظَمُها أَنْ ينشأَ عنها عدمُ إمكان الرجوع الى حياةٍ سويةٍ. وهذا ما حصل سنة ١٩٤٥ فاذا كان الارتياح في نهاية الحرب عظيما فانه كان أقل من الارتياح سنة

١٩١٨ : فلأول مرة كانت اوروبا قد رأت ما يمكن ان تكون حربٌ كليةٌ وكان كل واحد يعرف بالتجربة ان نهاية الحرب ليست بالضرورة قدوم الخصب .

ان الفكر الانساني ميال ميلا طبيعيا الى اعتبار كل حرب هامة تختم مرحلة وتفتح مرحلة اخرى . وليس موقف المؤرخين الذين يفكرون على هذا النحو موقفاً اعتباطياً ، فهم لا يقومون الا بمسايرة الفكر العام وتقليدٍ مضت عليه آلاف السنين . فعندما يعود السلام يشعر الرجال بأنهم أتموا عملا هاما جدا وواجهوا وحلوا المسائل التي طرحت عليهم على صورة حادة وأجروا تصنيفا جديداً فأغلقوا مرحلة وفتحوا مرحلة جديدة . ولقد قال فون برناردي (von Bernhardi) . ان الحرب هي **امتحان الشعوب** ، ولذلك نجد أن الشعور بالارتياح بعد الحرب من نوع استرخاء الطلاب المعروف الذي يتبع هذه الفترآت العصيبة للسنة المدرسية . والامتحان انقضى إن خيراً أو شرّاً . ان هذا الشعور بأن الحرب امتحان للشعوب هو الذي جعلها تعتبر – سواء في نظر المحاربين أم المشاهدين الحياديين – مصدرا للتعليم . فثمة ميل عام لتتبع مدرسة الغالب على حين يستهان بمؤسسات المغلوب وطبعه فيحملونها مسؤولية الهزيمة .

من وجهة النظر النفسية ، ان الفترة التي تعقب الحرب مُنْتِجَةٌ لِلْعُقَدِ . وأخطر هذه العقد عقد القصور في الشعوب المغلوبة . وهي تترجم عن نفسها غالبا على صورة مواقف تكفيرية . فتُقَرِّرُ « التَّوبَة

النَّصُوحُ » كما كانت الحال في فرنسا بعد سنة ١٩٤٠ .

يمكن أن نعتبر هذه التوبات عودة لسلسلة افاعيل سحرية قديمة تشاهد في كل الازمان وفي كل البلاد : فقد كان **القدماء** يقدمون للآلهة تضحيات تكفيرية ويفرضون على انفسهم انواعا من الحرمان بعد الانكسار.

وفي الحضارات التي هي اقل قدما ، نجد التضحية ما تزال موجودةً ولكن على صورة **عقوبةٍ** : فيندرُ غداةَ انكسارٍ أن لا يجري قتل بعض الرؤساء وطائفةٍ من الناس أحياناً متهمين بالعصيان أو بالخيانة فيكونون بمثابة كبش الفداء الذي تُطَهِّرُ تَضْحِيَتُهُ بقيةَ الأحياء.

وهناك نتيجة اخرى للحروب بوجه خاص حينما تفضي الى تسلطٍ ثابتٍ بعض الثبوت ، تلكم انها تفرض تقليد الغالبين (١) . وقد تكون الحرب انجع صورة للاحتكاك العالمي. أجَل يمكن بلداً أن يغلق حدوده زمن السلم ويغلو في كره الأجانب إلى حد الخرف والهذيان كالصينيين في القرن الثامن عشر ولكن هذا الجهاز الجميل جميعا لا يمكن أن يتماسك امام غارة من الغارات . **فالحرب تقطع العزلة الثقافية والاقتصادية** . لذلك لا بد ان نفرق بين الحروب التي لم تكن الاّ مجرد

(١) يعقد ابن خلدون في المقدمة فصلاً « في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » ويعلل ذلك . ونحن نلاحظ أن الغالب مولع أحياناً بالاقتداء بالمغلوب (المترجم) .

حوادث عرضية تفضي الى تعديل الحدود والحروب التي ولّدت تغييرات في المؤسسات والعقليات . ومن هنا تأتي الاهمية الكبرى للحروب الاستعمارية على الرغم من تواضع مظهرها العسكري لأنها تولد **تغييرات اجتماعية** حقيقية : فالحملات الصغيرة لكورتز Cortez وبزار (Pizarre) اكثر اهمية للمدنية الاسبانية من حروب شارلكان (Charles Quint) .

إن خمود الدافع الحربي يدوم على وجه العموم **الوقت اللازم لاعادة بناء خسائر الحرب السابقة** . لقد كانت هذه النقاهة طويلة لأن النمو الديمغرافي كان ضعيفا . اما في ايامنا هذه فان اسوأ المجازر تعوّض في بضع سنين . وهنا نرى المطالبات تستيقظ . فتفكر الشعوب المغلوبة في الانتقام . ويخال الغالبون أن تضحياتهم كانت تستحق مكافأة أعظم في الغنائم أو ضم الولايات أو خفض [١] الخصم . وهنا نجد الدورة قد أُغلِقَتْ : والدوافع الحربية على استعداد لتتجلى من جديد .

٦ . اشكال محبة السلام

من المناسب ان نفحص هاهنا نزعة السلام من زاوية إمكان اعتبارها قسما من انواع السلوك النفسي ضمن « ظاهرة الحرب » .

---

(١) في أسماء الله تعالى الخافِضُ هو الذي يَخْفِضُ الجبّارِينَ والفراعِنة أي يَضَعُهم ويُهينُهم ويخفض كل شيءٍ يريد خَفْضَهُ . والخَفْضُ ضِدُّ الرفْع ، خَفَضَه يَخْفِضُه خفْضاً فانْخَفَضَ واخْتَفَضَ (لسان العرب) .

فالاتجاه نحو حب السلام نقيض الدافع الحربي. – ولذا يزدهر على وجه العموم عقب الحروب. وهو يَسِمُ هبوطَ التَّوَتُّرِ الحَرْبِيِّ أو نَقْصَهُ. والنزعة السلمية هي رد فعل نفسي مباشرة: إنه يؤثر في الرأي دون أن يمر مقدما بضروب معقدة من الاستدلال كالاحكام اللاهوتية أو الفلسفية. والنزعة السلميةَ لا تمر أيضاً بنظريات سببية سابقة كمخططات السلم. فهي ليست الاّ التعبير عن اتجاهٍ وعن رغبةٍ. انها سلوك مباشر وحالة نفسية لا تزال غير مفهومة. لكن الانسان الذي هو كائن اجتماعي في الأصل تتخذ ردود الفعل الغفوية لديه دائما شكلا نسقيا ومختلفا على حسب العالم الثقافي الذي ينتمي اليه. وعند ما يتعلق الامر بنزعة السلم يمكن ان نعتبر ان **الصورة التي تبدو بها المطالبة بالسلام تتعلق بالمفهوم المسيطر لدلالة الحرب تعلقا وثيقا**. فيبدو لنا بالنتيجة أن الاتجاهات والمذاهب السلمية يمكن ان تنقسم الى زمرتين كبيرتين حسبما **يستمر محركوها الأُول – وهم يلعنون الحرب – في اعتبارها شيئًا مقدسا أو يطوون عنها هذا الاحترام وَيَتَصَدُّونَ لَها تَصدِّيهم لشيءٍ مدنسٍ أو محتقرٍ**.

النزعة السلمية المقدسة. – النزعة السلمية الكتابية. – لما كانت الحرب تعتبر عقابا من الله ينصب على الملعونين والعاصين – كما رأينا – كانت النزعة السلمية لدى الانبياء تتجلى في السهر الشديد على أن لا يكون هناك زندقة ولا دنّس يسببان صب العقوبة الالهية على الجماعة.

النزعة السلمية الرومانية. – انها نزعة مظفَّرين قد جاوزوا الحد وتعبوا من كثرة الانتصارات والتعذيب ولكنهم لا يزالون – مع ذلك – يُحمِّلون المغلوبين كل المسؤولية. والدور الذي كانت روما تُؤَدِّيهِ هو أن تسود وتُعَلِّم الفقه وتقضي بين الشعوب. وقد كان عصيان الشعب الروماني جنايةً على الأمبراطور وزندقة في الوقت نفسه.

النزعة السلمية القدرية. – تتلخص هذه النزعة في انها اتجاه نحو عدم المقاومة. ومهما كانت جهود الناس فانهم ليسوا اسيادا للسلم ولا للحرب ولا للنصر ولا للهزيمة. فالحرب اداة القدر التي لا يمكن تحاشيها والغالب هو الذي اختارته الآلهة. وما من سبيل الاّ الخضوع.

النزعة السلمية المبعدة لفكرة المقدَّس. – النزعة السلمية الانجيلية. – يُمْكِنُنَا – معتمدين نصوصا عديدة – ان نعتبر ان **العهد الجديد** لا يتصور الحرب شيئا مقدسا. وهذا شيء عُجاب. والواقع ان الله غير مسؤول عن الحرب، فهي شيء بشري محض ثم انها اثم. «من أَخَذَ بالسيف أُخِذَ بالسيف».

حتى حينما اضطرت الكنيسة الى مصالحة السلطات الزمنية فيما بعد وفي الحروب الصليبية على وجه الخصوص، احتفظت بآثار عديدة من هذا الموقف الاول: فالحرب من حيث المبدأ محرمة على كل اعضاء العالم الكهنوتي. ويمكن ان نشبه مذاهب عدم العنف (كبوذا وتولستوي وغاندي) بالنزعة السلمية الانجيلية.

النزعة السلمية التي تعتمد على الشكوى. – انها تمضي من وجهة النظر التي تقول بأنه يكفي ان نُذَكِّرَ الناس بقسوة الحروب وكثرة ما تنتج من تخريب ونهب ومجازر وآلام من كل الانواع حتى يكرهوها. (ولكن النوّاحات لم يشفين أي مريض قط). ويبدو أيضاً أنها تعتبر أن الحرب نوع من الخطأ في الحساب لدى القادة، ونوع من الانجذاب الناشىء عن الخفة والغضب لدى الشعوب.

النزعة السلمية «المعتدلة». – إنها ترمي إلى تبكيت الحرب اكثر مما ترمي الى القضاء عليها أو رفضها رفضاً صريحاً قاطعاً. ونجد هذه النزعة لدى مؤلفي الحقوق الدولية الذين يكتفي مذهبهم بالحكم على القسوة ومنع الظلم.

النزعة السلمية الحربية. – انها تنصح للشعوب بالقيام بالحرب حتى تضع حداً لها. وهي المذهب الذي استعملته فأساءت استعماله الدعايةُ عند كل المتحاربين في ١٩١٤ – ١٩١٨ بمثل هذه العبارات: «الحرب لمنع الحرب» و«La der des der». ان كبار الغزاة استعملوا غالبا هذا الشكل من النزعة السلمية حتى يُسَوِّغُوا سلوكهم كما فعل نابليون الذي أوضح في **ذكرياته** (Mémorial) انه كان يريد تحقيق السلام الدائم بتأسيس **دولة وحيدة**.

النزعة السلمية الوقحة. – انها لا تقتصر في بذل وسعها على نزع القداسة عن الحرب بل تسعى ايضا في ان تحرمها من الجاذبية البعيدة

المدى التي اكسبتها اياها الملاحم الادبية في كل صورها والثقافة التي نتلقاها . وهي تغطي غيظها بالسخرية من الاساليب العسكرية والقومية ذات النزعة العدوانية وتهاجم الرؤساء وخرافاتهم . ان احسن من يعبر عن هذه النزعة فولتير في كتابه (Le Candide) ومعجمه الفلسفي (Dictionnaire Philosophique) وآناتول فرانس في كتابه (L'île des Pingouins) . ان هذه النزعة قد نمت بعد حرب ١٩١٨ نمواً كبيراً . فقام في فرنسا الشاعر جاك بريفر (Jacques Prévert) أعظم ممثل لها في الأدب، وكذلك فرقة (canardenchainé) وفرقة (Crapouillot) في ميدان الصحافة.

(1) Jacques Prévert, *Paroles* et « La bataille de Fontenoy », in *Spectacles*.

الفصل السابع

الاسباب المعزوة الى الحرب ومخططات السلم

قال نوفيكو (Novicon) : «ان تواتر الحروب يبدو كأنه يبرهن على انها لا تحل شيئاً. » وما قال نوفيكو عن الحرب يمكن أن ينطبق ايضا على السلم على وجه الضبط. فلا السلم ولا المعاهدات التي تقدسه يمكن أن تحل شيئا. لقد احصيت ثمانية آلاف معاهدة سلام معروفة إثر ثمانية آلاف حرب وكان البدء من جديد واجبا دائما.

وقد بكروا مع ذلك إلى البحث عن وسيلةٍ لإرساء السلام على قواعد اكثر ثباتا من قواعد المعاهدات الخاصة. فلقد لوحظ – من وجهة النظر القضائية – أن معاهدات السلم لا تزيد على أن تضع حدّاً للعدوان وهي لهذا ملطّخة كلُّها بالعنف. ولا يمتنع المغلوبون أبداً عن أن يعتبروها باطلةً لا قيمة لها في أول فرصةٍ ممكنةٍ. فكان من الواجب اذن

محاولة الخروج من الدائرة التي تجعل العنف يلد العنف دائما واحلال نظرات عامة محل نظرات خاصة واحلال تشريع أو قانونٍ دوليٍّ يغنينا عن الالتجاء الى القوة محل العقود.

ولكن يجبْ قبل كل شيء ان نعرف الاعمال التي تعكر السلام حتى نَسُنَّ قوانينَ خاصة لإزاحتها. وهكذا نجد أن كل **مخططات السلم التي عرضت علينا على مر القرون مؤسسة على نظرية سببية للحرب ان تصريحا او تلميحا.**

ان مخططات السلم على وجه العموم لا تظهر الاّ بعد سلسلة من الحروب. فهي تعكس السآمة والسخط والرغبة في الخلاص التي تعقب ايام الحروب. ولكن لكل عصر دوافعه الحربية المفضلة التي تدهش المعاصرين وتغذي تفكيرهم. وبعملية تعميم نجدها في قاعدة كل المذاهب الاجتماعية تمتد هذه الاسباب الى كل الحروب الماضية والحاضرة والمستقبلة، كل مرة. فمؤلفو مخططات السلم يقولون لنا على سبيل الإجمال:

« لقد وجدنا ان سبب الحرب الفلانية التي ازعجت عصرنا هو هذا السبب المعيّن، فهو اذن سبب مُوَلِّدٌ ومُنْتِجٌ لِكُلِّ المعارك المسلحة. ونحن نقترح عليكم هذا التدبير الذي يتكون نتيجته هدم هذا السبب أو إزالة مفعوله وضمان السلم النهائي بالنتيجة».

١ . مخططات السلم الاقتصادية

يمكن القول بأن العالَم الأوروبي على وجه الإجمال عاش منذ أيام الامبراطورية الرومانية المتأخرة خاضعا لنظم مختلفة من الاقتصاد الموجّه. زد على ذلك ان السياسة **البليونية** ثم التجارية كانتا تُظهران مظْهر سياستين ضروريتين للتمكين العسكري للدول في سبيل إعداد ذخائر الحرب.

ولما لم تنقطع الحروب في غضون هذه المدة كنا مسوقين سوقا طبيعيا الى الاعتقاد بأن الاقتصاد الموجه ونظام الحماية الجمركية ومذهب كولبر والسياسة التجارية كانت اسبابا للحرب. وهكذا قاوم الفيزيوقراطيون مذهَبَ كولبر والاحرارُ مذهَبَ الحماية. وقد كان الاحرار يعتقدون بأن التبادل الحر يضع نهاية لكل التناقضات الاقتصادية بين الامم. يضاف الى ذلك نظرية ارمياء بنتام (Jérémie Bentham) الذي اقترح إلغاء كل المستعمرات أيضاً. ولقد كانت نظريته قائمة على ان الدول الاوروبية في هذه الفترة كانت تعتبر المستعمرات منافذ محجوزةً لصناعتها وتجارتها. وقد امتنعت انكلترا عن غزو الاراضي الاوروبية منذ عصر البعث، وكلما اشتركت في حرب يحالفها الظفر فيها انتزعت مستعمراتٍ من الدول الأوروبية المنافسة لها. وقد سيق بنتام الاقتصادي الانكليزي سوقاً طبيعياً إلى أن يستنتج من ذلك ان التفتيش عن مستعمرات جديدة كان السبب في العدوان البريطاني.

لقد وُضِعَ أحدُ مخططات السلم التي كانت تستنكر المذهب الموجّه تحت التجربة : فقد انتصر الاحرار في القرن التاسع عشر. وقد سبب انتصارهم ارتفاعا كبيرا في الانتاج والتوسع الاوروبيين. ولكن يبدو أنّ هذه التغييرات لم تؤثر في النزعة العدوانية للجماعات والامم تأثيرا كبيرا وكل ما يمكن ان يقال ان الحروب تَغَيَّرَ نَسَقُها . ولكن هذا ما يحدث كلما حصل تعديل في أبنية الدول أو السكان أو الاقتصاد. وقد اصبح الاقتصاد الحر بدوره متهما بأنه السبب الرئيسي للحروب : ان حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ انتهت بظفر المذاهب الاشتراكية التي كانت في الواقع – في تلك الفترة على الاقل – سلمية وعالمية ومعادية للنزعة العسكرية في الوقت نفسه. علاوة على ذلك ، بما أن الاحزاب الاشتراكية ليس لها من الأمر شيء في أي بلد من البلدان المتحاربة لم تتحمل المسؤولية الايجابية ولا السلبية على اية صورة من الصور. وبما أن الرأسمالية كانت النظام الاقتصادي سهل علينا ان نستنتج من ذلك ان حقا أو باطلا ان الرأسمالية كانت المثيرة الوحيدة للحرب . والآن أفلا يمكن ان ندعم دعما مطلقا في ضوء التجربة التاريخية ان الرأسمالية – على صورة مطلقة وثابتة – اكثر أو أقل ميلا للحرب من النظم الاخرى؟ وهل يضمن اختفاؤها السلام العالمي كما يرى بعضهم ؟ لندرس بدّيا تصوراتِ الرأسمالية الحديثة . ان سياسَة الدولِ التجاريةِ الاولى كقرطاجة أو البندقية (Venise) أو البلاد المنخفضة كانت حربية تارة وسلمية تارة أخرى حسبما كانت مصلحتها

والمصادفة التاريخية تجرانها الى هذه الطريق أو تلك. فلم تكن هذه الدول لتستطيع بأية حالٍ أن ترتاح لحالة حربٍ دائمةٍ شبيهةٍ بحالة اوائل العصور الوسطى او بعض البدائيين كالمغول (Mongols) لأن التجارة والاعمال تتطلب فتراتٍ طويلةً من السلم. وهذا ما جعل هربرت سبنسر يعتقد بأن الوضع الصناعي يسوق السلم معه.

ومن جهة اخرى، ان عبادة المجد العسكري - من وجهة نظر نفسية - ليست في لندن بأقل منها في برلين أو روما أو نيويورك. وكانوا يحتفلون به في البندقية وفلورنسة وآمستردام. وترينا التجربة ان الدول الاشتراكية ليست بأقل شعورا به في ايامنا هذه. ان ارادة القوة والدوافع الحربية تبدو مستقلةً عن النظم الاقتصادية استقلالا تاما. وكذلك الامر في شكل نظام المراتب السياسية او الاجتماعية لتنظيم العمل او امتلاك خيرات الانتاج أو الاستهلاك. ففي الارستقراطية والإضاعية والبلوتوقراطية والرأسمالية والاقتصاد الجماعي أو الاشتراكي والاقتصاد البدائي أو الحديث والرق والعمل الحر أو القسري والقنانة أو الملكية الصغيرة، في كل هذه الأبنية نجد جيوشًا وحروباً.

ان كل حاجة يمكن نظرياً أن تتيح الفرصة لنضالٍ يؤول الى اشباعها بمضرة الآخرين. وكل خلاف اقتصادي يمكن ان يستشري ويؤدي الى حدوث نزاع. ولكن اليس الأمر كذلك في كل خلاف؟ وعلى النقيض يبدو أن المناقشات الاقتصادية كانت أرضاً طيبةً للمساومات والتراضي.

ثم إنه يندر ألاّ تُفَسَّر حالةٌ اقتصاديةٌ بكثير من الصور المختلفة كالاحصاء . لذلك يمكن القول بأن النظريات الاقتصادية التي **يُعتقد بها** هي بين اهم الاسباب الاقتصادية للحروب . وهي على وجه اليقين أهم من الواقعات الاقتصادية بمعناها الدقيق لأننا نترجم ونحلل الحالة الحاضرة من خلال عقائدنا وافكارنا وبكلمة واحدة من خلال عقليتنا . واذا كانت المذاهب الاقتصادية الراهنة تعتبر أن الحالة الحاضرة لا تُحَلّ الاّ بالحرب كان تأثر رجال الدولة والرأي العام بها أمرا محتوما . يقول إيليا فور (Elie Faure) . «ليس الخطأ الكبير أن نعتقد بأن الحرب تعود بالربح بل ان نعتقد بأن الحرب تثار لأنها تعود بالرّبح » .

ومهما يكن من أمر فلا يستطيع أي اقتصادي أو أي مؤرخ أو أي رجل سياسي ان يحدد أو يوضح درجة التناقض الاقتصادي التي ينبغي ان يكون اندلاع الحرب معها امرا لا مفر منه . ثم ان التجربة تدلنا على ان إهلاك الحرب للحرث والنسل يتجاوز على وجه العموم قيمة مخاطرتها المعاشية العاجلة تجاوزا كبيرا . وحينما ينحط النزاع الاقتصادي الى خصومات دامية يكون قد انضاف اليه عامل عاطفي يجعل المتخاصمين في هذه اللحظة في صمم عن اصوات المصالحة والتراضي . وبكلمة واحدة ، **يبدو أن العوامل الاقتصادية تكون اغلب الاحيان في خدمة الدوافع الحربية** . فالاقتصاد دوما في كل الحالات

بلا استثناء احدى ادوات الحرب. ولكن العكس ليس بصحيح : فالحرب ليست اداة الاقتصاد دوما.

٢ . مخططات السلم السياسية

قبل ان نباشر دراسة مخططات السلم السياسية المختلفة المقترحة لندرس دراسة سريعة النتيجة السياسية الاخيرة الناتجة عن الحرب، كما فعلنا بوجهها الديمغرافي أو الاقتصادي. بعبارة اخرى ، فلنر ما يمكن ان تكون الوظيفة السياسية للحروب.

ويبدو عسيرا علينا – اذا لم نحذف كل انواع التعارض حذفاً مطلقاً – ان نربط تأثيرات الحروب بنماذج المجتمعات كما يَعْسُرُ ربطُها بالاعتقادات أو بأساليب العمل الفنية لأننا نرى غالبا حروبا تنتج تأثيرات متضادة احيانا كُلَّ التضاد في مجتمعات متشابهة أو في مجتمع بعينه.

اما من وجهة نظر العقائد والنظم السياسية فيحدث غالبا ان الحروب تحذف ما بقي منها ، انما يحدث احيانا ايضا انها تمكنها . نضرب على ذلك مثلا انتصارات اليابان حتى ١٩٤٥ التي قوّت وثنية الامبراطور والافكار الدينية الوراثية ، وقلبتها الى اساليب العمل الفنية الاوروبية في الوقت نفسه.

ان القاعدة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من معظم الملاحظات هي أن **الغالب على وجه العموم يُثَبِّتُ في عقائده لأنه يعزو اليها النصر ،**

على حين ان المغلوب مسوق غالبا الى الشك في مجموعة مثله العليا ومؤسساته. فالانكسار يكون مصحوبا غالبا بأزمة في النظام السياسي وبأزمة في الشعور. والانكسار لذلك – ما لم يكن سحقا تاما – هو غالبا اكثر نموا في الحركة من الانتصار، فالنصر يُثَبِّتُ والانكسار يُبَدِّلُ. ولكن التبديلات السياسية التي تحدثها الحرب ليست تقدما بالضرورة. وفي وسعها ان تقود الى دولة سياسية اكثر توحشاً، مثل انتصار العصابات المتوحشة المسلحة على روما، فقد جعل اوروبا ترتد في غضون قرونٍ من امبراطورية منظمة ومحاطة بمؤسسات سياسية وقضائية علمية الى دولة قبلية تكاد ان تكون بدائية ثم الى التفتت الإضاعي.

وحينما تكون دولتان تملك كلتاهما مذهبها السياسي في نزاع دائم لا يمكن التنبؤ بالظافرة منهما. حتى لو انتهى النزاع بالنصر التام لواحدة منهما فيندر ان تبقى البنية العقلية والمادية للغالب نفسه كما هي بعد مثل هذا الحادث. انها تخرج من الحرب متغيرة على وجه العموم. وهذه على وجه الخصوص خيرُ حالةٍ معروفةٍ في نزاع العصور القديمة وهي حروب القرطاجيين فسرعان ما غيّر المجتمع والدولة الرومانيان من طبيعتهما بعد الانتصار. وفي مرات اخرى نجد أن صراع قوتين متخاصمتين يولّد حلاً غير متوقع. وهذا ما حصل في الصراع الذي دام قرونا طويلة بين البابوية والامبراطورية المقدسة. إن الإضاعية كانت

تعد شعوبَها ونواحيها الأمن (١) بإتاوةٍ ويدفعونها إلى رؤسائها. اما الكنيسة فكانت تعدهم من جهتها أيضاً بالأمن بواسطة الخضوع لمعتقداتها. والقوتان أخيراً أضعفت كلٌّ منهما الأخرى وظهر بينهما حل لم يكن أحد يتوقعه: ذلكم عصر البعث، أي عقليةٌ سياسيةٌ فكريةٌ واتجاهٌ جديدان كل الجدة.

٣. مخططات الدولة الواحدة

ان النظرية السببية التي هي قاعدة هذه المخططات يمكن أن تلخص على هذا النحو: الحرب هي النتيجة المباشرة لسيادة الدول. فثمة منافسات أو مطامع أو أحقاد نتيجتُها الحربُ ما دامت دولٌ مستقلةٌ ذاتُ سيادةٍ كبيرةٌ أو صغيرةٌ. وقد اثبتت التجربة ان بلادا بعضها لبعض عدو عداء وراثيا طوال قرون اصبحت المواطنة والاخوة والصداقة تسمها بميسمها حينما اندمجت – غالبا بالقوة – في منظمة سياسية واحدة.

ان السلطان الوحيد يجعل العدالة والسلام يسودان العالم كما يسودان مقاطعات امبراطورية عظمى يكون هو رئيسها. وهكذا كان المواطن الروماني في القرن الاول والاسباني في القرن السابع عشر والانكليزي في القرن التاسع عشر يشكل كل منهم طبقة ممتازة في وسط

(١) وعده الأمرَ وبه (لسان العرب)

رهط من الشعوب الخاضعة . يمكن أن نسمي هذا المفهوم الظالم للوحدة «عقدة الشعب المختار» .

لقد دعم إمري رفز (١) (Emery Reves) هذه النظرية في ايامنا هذه . فهو يجد ان التقدم في اسلوب العمل الفني اليوم يلائم تحقيقَ الدولةِ الوحيدةِ : «فالآن لأول مرة في التاريخ ، أصبح غزو دولةٍ وحيدةٍ للعالم ممكنا جغرافيا وتكنيكيا وعسكريا ... اما من وجهة النظر التكنيكية والعسكرية فقد اصبح العالم اصغر بكثير من رقعة اية دولة عظمى في القرون الخالية . واصبح اسهل بكثير واسرع ان تحارب الولايات المتحدة في الشرق الاقصى من ان يحارب يوليوس قيصر (Jules César) في انكلترا أو مصر» . ويقول المؤلف : اذا لم يستطع الناس التفاهم للوصول الى الوحدة العالمية بوسائل سلمية وديمقراطية فهو يتمنى أن يعجل مجرى الحوادِث التوحيدَ بالعمل العنيف الذي يقوم به غاز من الغزاة

يجد الانسان في هذه النظرية الحجتين الرئيسيتين اللتين يتذرع بهما الفاتحون لتسويغ فتوحاتهم : فالاولى هي **البحث عن الامن**. لكن هذه الحجة تشبه حجة سبنسر التي لا تمكن معرفتها : كل فتح اذ يوسع الحدود ويمد خطوط الاتصال يزيد المناطق التي ينبغي له أن يدافع

(1) Emery Reves, *Anatomie de la Paix,* New York, 1945, trad. franç. Paris, 1946.

المعتمدين المتوقَّعين عنها. فليس ثمة حد اذن لغزوات ذلك الذي يزعم الوصول الى الأمن الكلي. ويصرّح رفز (Reves) في هذا الصدد قائلا: «ان الاندفاع نحو الأمن هو السبب الرئيسي للاستعمار». والحجة الثانية هي ان كل محاولات الاستيلاء الشامل التي ادمت العالم تعلن ان غايتها ان تجعل السلام والنظام يسودان العالم الى الأبد...

ان نظرة ولو كانت خاطفة الى التاريخ تجعلنا نشك في الفضائل السلمية للدولة الوحيدة. يكفينا ان نرى كم كانت فتراتُ السلم بعد تأسيس الامبراطورية الصينية أو الرومانية قصيرةً بالنسبة للجهود الجبارة والتضحيات التي عانتها الشعوب.

ان الحرب الاهلية تنتهي بأن تفرض نفسها على الدول التي لم تعد أيةُ حربٍ اخرى تستطيع ان توازن سلطتها. فالنضال الحزبي والخصومات الملكية والداخلية والمنافسات بين الجنود ورؤسائهم وعصيان التابعين في الضيع أو حكام الولايات كل أولئك يحل محل الحروب الدولية (٢).

٤. الاهمية التاريخية للحروب الاهلية

يميل معظم المؤرخين الى اعتبار الحروب الأهلية حروبا ثانوية على حين يبدو أن الحروب الاهلية تستحق الأولية غالبا لأكثر من سبب

(2) Cf. *Huit mille traités de paix, p. 23 et suiv.*

واحد. والواقع أنها من وجهة النظر الوصفية والطاقية أكثر الحروب ضراوةً. وهي – من وجهة النظر العددية والديمغرافية – على وجه العموم أكثرها تخريباً وضحايا. واننا لنجد – في مجرى تاريخ اوروبا الحديث – ان اعظم التخريبات خلفتها حرب الثلاثين سنة وحروب الدين الفرنسية. وان حرب الانفصال الامريكية سببت خسائر في الارواح البشرية اكثر من الحرب الفرنسية الالمانية سنة ١٨٧٠. كذلك كانت ضحايا الثورة الروسية بعد حرب ١٩١٤ اكبر عددا في هذه البلاد من ضحايا الحرب العالمية التي سبقتها. واخيرا ان اسبانيا التي لم تكن قد اشتركت في الحرب الأوروبية ١٩١٤ – ١٩١٨ عانت على اثر الحرب الاهلية ١٩٣٦ – ١٩٣٩ خسائر أعظم نسبةً من خسائر معظم المحاربين طوال هذه الحرب.

ان الدول تمر على التتابع بحالات من التجمع ثم بحالات من التجزؤ. على أثر الأوضاع الملائمة تنشأ الامبراطوريات الواسعة ثم لا تلبث ان تتفسخ ويبدأ التجزؤ على وجه العموم من الولايات البعيدة. ولكن العمليتين عملية التجمع وعملية التجزؤ على السواء تصحبها معارك دامية. بل ان الحرب اداة هذا التطور. ان تجارب الدول العليا التي اجريت لم تنجح فيما مضى بالقضاء على الحرب بهذه الوسيلة. وقد جرى كل شيء كأنَّ ثمة مبدأ من التعويض في هذه المواد، فالحروب الصغيرة والمتواصلة بين المضيعين أو بين الدول الصغيرة اُستُبْدِل بها

حروبٌ أهليةٌ كبيرةٌ متباعدة إلاّ أنها تحدث بضربة واحدة خسائر تعادل خسائر الحروب السابقة .

٥ . مخططات التوازن بين الدول

ان مخططات التوازن خلافا للمخططات الحقوقية – المؤسسة على فكرة مجردة عن الحق والمساواة بين الدول – تحسب حساب عامل القوة . إنها تنطلق من وجهة النظر التي ترى ان السلم يمكن ان يحميه تعارض القوى التي قد تتوازن فيبطل مفعول بعضها مفعول بعضها الآخر .

انها إذن مخططاتٌ لاجِمةٌ بوجهٍ خاصٍ . وهي تأمل ان تجعل السلام يسود اما بتقسيم العالم بين دول متكافئة القوى تتبادل الاحترام واما بحكم اتفاقاتٍ وأحلافٍ وتكتلاتٍ . إنها تعتقد بأن ما يُغْري بالانطلاقِ إلى الحربِ سيكون أقل اذا كان تعادل القوى المتواجهة (١) يُظْهِرُ النصرَ مشكوكاً فيه حقّاً أشد الشك .

من المناسب مع ذلك ان نشير الى الوجه الهجومي لمثل هذا المفهوم . فمذهب التوازن يبذل وسعه في منع أية أسرة مالكةٍ أو أمةٍ من زيادة قوتها بكل ثمنٍ حتى تصبح خطرا على جيرانها ، إلاّ أنّهُ ينبوعُ حروب لا ينفد ، لأنه – في التحليل الاخير – يشير على الامم – كما فعل ما كيافيلي – باتخاذ حروب وقائية في كل مناسبة . ان تاريخ اوروبا

---

(١) وتواجه المنزلان والرجلان تقابلا (لسان العرب) .

بوجه خاص مصنوع من وساطات واحلاف وتحزبات و«كتل» وحروب عامة ولدتها كلها نظرية التوازن دائما . ولا جدال في أن اوروبا نجحت بفضلها في ان تمنع منذ العهد الروماني قيام امبراطوريات واسعة كما حصل في حضارات الشرق الادنى والاقصى . ولكن ينبغي ان نعترف بأن السلام لم يجن من ذلك إلاّ أضعف الفائدة .

ان مخططات التوازن التي تضم **سبكا جديدا وقسمة عامة** (كمخطط سولي Sully) نادرة الوجود . ان غايتها إحلال قسمة عقلية للاراضي والحدود محل الحدود التاريخية التي رسمتها قوة المعارك غالبا . والشيء العجاب ان بعض التطبيقات التاريخية لهذا المبدأ أدّى الى التجزؤ والتصفية الارادية والسلمية لدول عالمية اعتقد أصحابها أنها غير جديرة بالعيش على هذه الصورة . وأشهر تقسيم تقسيم الامبراطورية الرومانية من قبل ديوكلتيان (Dioclétion) ثم تقسيم امبراطورية شارلمان بين ابنائه الثلاثة ثم تقسيم مملكة شارلكان .

٦ مخططات السلام المؤسسة على النظم السياسية ومعتقدات الدول

لقد اتهمت النظم السياسية الداخلية للدول غالبا بأنها اسباب للحرب . وكان دائما اصحاب نظريات يرون ان هذا النظام السياسي حربي النزعة في الاصل وذلك الآخر عامل سلام .

وهكذا نرى في العصور الوسطى ظهور فكرة ترى ان الملكية اذ

تضع حدا للحروب الإضاعية – التي كانت جرح اوروبا اذ ذاك – تجلب معها السلم .

لكن الملكية – لسوء الحظ – ولّدت من بعد سلسلةً لا تنتهي من الحروب الملكية . فحرب المئة عام وحروب ايطالية وحروب لويس الرابع عشر كانت قائمة على مفهوم الدولة الوراثي من الوجهة الحقوقية . وكان الملك الذي يذهب الى الحرب يطالب على وجه العموم بميراث يدعي بأنه من حقه . واذا اصبحت الحروب – في غضون القرن التاسع عشر – أقل صبغة ملكية في ضراوتها من الحقب السابقة فقد بقيت مع ذلك مسألة ملكية من الطراز الأول . ان هذه المكانة الممتازة التي يشغلها الملوك في الحرب جعلتهم موضع الاهتمام الأول لذوي النزعة السلمية . فقد كانوا يعتقدون بأن الملوك يريدون الحرب بسبب طموحهم وطمعهم وحب المجد أو حتى يتشاغلوا بها عن المصاعب الداخلية ويبقوا شعوبهم في العبودية .

لقد تناسى عدد من المؤلفين امثلة جمهوريات العصور القديمة أو جمهورية البندقية (Venise) واعتقدوا بأن انقلاب الممالك جمهوريات يأتي بالسلم العالمي . وقد ألح روسو غالبا على الروح السلمية للجمهوريات . وكتب فيكتور هوغو أغاني فخمة في لعن الملوك والملكيات . ولكن النظم الديمقراطية أثبتت جدارتها الحربية منذ ذلك الوقت . فالتجنيد الاجباري الحديث قد نشأ من الثورة الفرنسية . والخدمة العسكرية الاجبارية حقا لم تعد الى الظهور بعد العصور

القديمة الاّ في النواحي الديمقراطية في العصور الوسطى . ولم تحدث حرب عالمية الاّ بعد ان تشاجرت النظم الديمقراطية والشعبية . ولم يطلب ملك قط من شعبه المطالب المميتة التي يطلبها الرؤساء المنتسبون الى الشعب والمنتخبون من قبله كنابليون وهتلر الخ .... (١)

والحقيقة انه يستحيل على الملاحظ المتجرد ان يقرظ الفضائل السلمية لأي نظام سياسي . فالتجربة ترينا ان تغيير شكل الدول كتغيير الطبقة الحاكمة لا يؤثر في المزاج الحربي للأمم ابدا . حتى يمكن القول بأنه مهما يكن اختلاف الحكومات سواء أكانت مطلقةً أم حرةً وأرستقراطيةً أم شعبيةً وملكيةً أم جمهوريةً ، فان لها جميعا نقطة مشتركة : تلكم انها تتفق في بعث الحرب على السواء وتلتقي في المجازر .

ثم ان الملاحظ المتجرد نفسه يلاحظ ان نظاما واحدا في بلد بعينه يكون حربي النزعة تارة وسلميها تارة أخرى . فهنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الخامس عشر كانوا ملوكا مسالمين مسالمةً نسبيةً ولم يكونوا أقل ملكية ولا أقل استبدادا من لويس الرابع عشر الحربي النزعة . والأمر كذلك في الجمهورية والجمهوريين : نضرب على ذلك مثلاً الجمهوريين في ظل لويس فيليب وكذلك الاشتراكيين – وعلى رأسهم برودون – فقد كانوا حربيين على حين كان الملك والملكيون مسالمين .

---

(١) هذان عسكريان (المترجم) .

ـ ان وحدة العقائد الدينية. أو النظم السياسية – من جهة أخرى – لا تؤهل الامم للتآخي بالضرورة. فقد اقتتلت طوائف النصارى أو المسلمين، حتى في عهود الايمان القوي، اقتتالاً أكثر من قتالهم الكفار.

ان الامم الكبرى التي اصبحت جميعا جمهوريات أثبتت في عام ١٩٤٠ نزعة هذا النظام الفطرية إلى السلم. فالعنوان وحده هو الذي تغير: فقد اصبحت الحروب الملكية حروبا وطنية واستُبْدِلَتِ النجوم أو الأشعرة (٢) على العمَراتِ بالتيجان، وبقيت البِزَّةُ. فمسائل سببية الحروب غير هذه اذن.

ان مبدأ الجنسيات الذي حل محل مبدأ الملكية الشرعية في القرن التاسع عشر بدا أنه عامل سلام في الاصل. ألم يعلن نابليون الثالث: «ان الجنسيات المطمئنة سرعان ما توطد الاتحاد الاوروبي». ان برودون بقي الوحيد الذي لم يشارك في وجهة النظر هذه، لأن الجنسيات – كما قال دوستويفسكي – لا تطمئن ابدا.

وبينما كانت اوروبا كلها تصفق هاجم برودون ماتزيني (Mazzini) وانتقد كوسوت (Kossuth) والديمقراطيين المعادين لمعاهدات ١٨١٥. لقد تنبأ بأن «الديمقراطيات الامبراطورية» لا تزال اكثر حرصا على سيادتها واكثر تعطشا للمجد والفتوح من الملكيات

(٢) والشِّعارُ ككتابٍ العَلامةُ في الحرب ويفتح ج أشْعِرَةٌ وشُعُرٌ (القاموس المحيط).

الشرعية القديمة. وكان برودون يفهم ان الملكيات بسبب بقاء الحق الإضاعي كانت مستعدة لقبول نظام رتبي للسلطات على حين كان مبدأ الجنسيات يقدم منذ البداية حِدَّةً خاصةً. وهو إذ يمنح الامة نوعا من سيادة الحق الالهي كان يُطْرِي عدم تساهلها في كل انتقاص من هذه السيادة مراعاةً لمعاهدةٍ بين دول او لدولةٍ عليا.

والمعروف ان برودون نادى بخلق اتحادات واسعة ليست وحداتها بالامم الكبرى بل وحدات اقتصادية اصغر بكثير. لقد كان خصما لتجمع الدولة الوحيدة سواء أكانت ملكية أم ديمقراطية. ان تنبؤاته في هذه النقطة قد تحققت: فإن مبدأ الجنسيات لم يكن له من نتيجة حتى الوقت الحاضر إلاّ انزال طموح الغزاة الاكثر تكبراً الى الطبقة الشعبية. لقد ذاعت في كل مكان الفكرة النابليونية عن منحدرات الحماية. وبذلك تُحتَرَمُ نظرياً جنسية الجار ولكن يمكن مع ذلك اقتطاع قطعة من ارضه لضمان سلامتها. ثم ان حمل الاسلحة وسرعة وسائل التنقل التي تتزايد وهذه المنحدرات ينبغي أن يزداد امتدادها حتى تكون مجدية. ومن منحدر الى منحدر ينبغي ان نبلغ أقصى العالم.

ان مبدأ الجنسيات الذي كان ينبغي له ان يسوق الانسانية إلى ميلادٍ شِعْرِيٍّ بدا بالاستعمال – حتى الآن على الاقل – خِصْباً بالخصومات الدامية خِصْبَ المبدأ الملكيّ. ويبدو أن ارادتنا اخيرا شديدة الضعف بحيث تنتهي أغلب الحكومات دائماً – أيّاً كانت – بأن تجد نفسها

مسوقة الى بعث الحرب حفظا للسلام وإن كانت عزيمتها أمضى عزيمة في العالم.

مخططات السلم الحقوقية. – حاول عدد من رجال القضاء منذ مطلع العصر الوسيط اقامة مخطط لمنظمة عالمية تفسح المجال لنصرة السلام بين الامم كالمجالس اليونانية فيما مضى. ويمكن ان نذكر بين اهمهم بطرس دوبوا Pierre Dubois الذي اقترح ايجاد اتحاد للدول المسيحية ومجمع يكون هيئته المركزية، وامريك كروسه (Emeric Crucé) (١٥٩٠ – ١٦٤٨) الذي مدّ هذا المشروع على مجموع دول الارض وسولي (Sully) الذي تصور أن يقسم أوروبا الى خمس عشرة دولة متساوية في القوة والغنى.

وينبغي أن ننتظر مع ذلك الحركة الانسانية الكبرى في القرن الثامن عشر حتى نرى نشوء مشروعات إن لم تكن قابلة للتحقيق فهي على الاقل واضحة وضوحا كافيا في تفاصيلها حتى يأخذها الرجال السياسيون بعين الاعتبار.

الأب سان بيير L'abbé de Saint Pierre. – في ١٧١٣ في مؤتمر أوترخت (Congrès d'Utrecht) بدأ الاب سان بيير «مشروعة لجعل السلم دائما في اوروبا». ولما انتهى في ١٧١٨ حظي بمناقشة الموسوعيين له.

ان الشرط الاول للسلم تأسيس ما سماه الاب سان بيير «جمعية

دائمة» تشمل اربعا وعشرين دولة يوقع أعضاؤها على معاهدة قائمة على الوضع الراهن Le Statu quo الذي أقيم حديثا في أوترخت ورستات (Rastadt) : «تحتفظ كل الدول بحدودها التي تملكها الآن، فلا يمكن ان تقطع اية ارض من اية دولة، ولا يمكن ان تضاف اية ارض اخرى بالوراثة أو حلف البيوت المختلفة او الاصطفاء او الهبة او القطع أو البيع أو الغزو أو الخضوع الارادي للاشخاص أو أي شيء آخر».

والمادة الثانية تنص على أن يسهم كل عضو في النفقات العامة على حسب ايراده ومسؤولياته. ويدخل في التفصيل: تخمينات دقيقة لميزانية مؤلفة من خمسة وعشرين مليونا يذهب نصيب هام منها في أعمال المعونة الخ...

وهو يطلب في المادة الثالثة «ان يكف الحلفاء الكبار عن سبيل السلاح حتى ينهوا خلافاتهم الحاضرة والمستقبلة بينهم وان يجمعوا على اتخاذ سبيل المصالحة فيما بعد بتوسط بقية الحلفاء الكبار في مكان المجمع العام».

لكنه ينص مع ذلك على التحكيم وعلى عقوباتٍ: «يُسَلِّحُ الحلفُ الكبيرُ، ويقاوم ويقاضي الذي يدخل في حربٍ بغير حقٍّ». فينبغي إذن إيجاد جيش دولي بصفة سان بيير وصفا دقيقا غير أن توزيعه بالنسة إلى الموقعين يبدو مملوءاً بالخطر. وهو ينتهي بقبول الأتراك والموسكويين

والتّتَر (Tartares) الخ ... في حلفه . غير أنه ليس لهم من مكان في المجلس .

ويسترسل الأب سان بيير استرسالاً دقيقاً في تركيب هذا المجلس ، « مجلِس السِّلم » ، ووظيفته فيرى أنه يتركب من أربعةٍ وعشرين عضواً وأربع وعشرين أمة ويذكر أعمارهم ، وأجورهم ومدة الوكالة وعدد المساعدين الخ ...

إرميا بنتام Jérémie Bentham . – إن مؤلَّف الاقتصادي والحقوقي الانكليزي بنتام الذي كُتِبَ في ١٧٨٩ لم يُعْرَفْ حَقَّ المعرفة إلاّ بعد نصف قرن من وضعه . وان « مخططه في السلم الدائم والشامل » يعتبر اصل الحروب التنافس التجاري ومن هنا يريد القضاء على النظام الاستعماري . ويستحسن بنتام في تصريح روبسبيير الشهير عبارته : « لأن تهلك المستعمرات خير من أن يهلك مبدأ » ، وقد وجّه إلى الجمعية التأسيسية مذكرة تشجعها على ترك المستعمرات . (وقد تلاشت هذه الأفكار في حينها في الفضاء اذ كانت الجمعية التأسيسية في الثاني والعشرين من شهر ايار ١٧٩٠ تأمر بأن تكف فرنسا عن اتخاذ أية حرب للاستيلاء وألاّ تستعمل قواها ضد حرية أي شعب ابدا . وان ما يتبع هذا معروف) .

ان مشروع بنتام للسلم الدائم يطلب ايضا تحديد التسلح . وهو يريد ان يقنع فرنسا وانكلترا على السواء بالصغوبات الناشئة عن غزو وهو اذ يتوجه الى انكلترا يقول : « أنتم المجرمون الكبار ، ولكنكم ايضا أقوى

امة . انتم لا تخافون من العدالة.غير أنكم تملكون القوة ، وقوتكم هي التي كانت السبب الرئيسي لظلمكم » .

وقد وضع بنتام محكمة عدلٍ ومجلساً للسلم على رأس جمعية أممه . واذا قضينا على اسباب الحروب كانت المحكمة التحكيمية فرصة للاقتصاد المعتبر. وسوف تحل الثقة محل عدم الثقة والحسد . واذا استعملنا الصحافة وكل الوسائل التي نسميها الدعاية لَيَّنَ مؤتمرُ السلم هذا العقولَ حتى يعمل على قطع اسباب التهيج الممكن واجْتُنِبَ كذلك استعمالُ القوة عن رضى شامل . وقد ألح بنتام اخيرا على الغاء سر العمليات الدبلوماسية . « فالسر غير مجد ومضاد للاهتمام بالحرية والسلم كذلك [1] » .

ان هذين المشروعين ، مشروع سان بيير ومشروع بنتام ، هامان على وجه الخصوص لأنهما يحتويان على كل المؤسسات التي اجْتُهِدَ في تحقيقها فيما بعد . وان المشروعات الراهنة للعدالة أو الامن الدولي أو التحكيم تعود الى تحليلهما في ما تطوي .

النتائج الحديثة : محكمة لاهاي ومواثيق التحكيم . – في الثامن عشر من ايار ١٨٩٨ اجتمعت لأول مرة ست وعشرون دولة يمثلها مئة نائب رسمي في لاهاي للبحث عن وسيلة ينتشر بها السلام في ربوع

---

(١) اليوم بعد تجربة ثلاثين سنة من الدبلوماسية العامة تُطرَى من جديدٍ المفاوضاتُ السرية لأنها لا تثير الرأي العام .

العالم. وقد حضر الاجتماع كل الامم الاوروبية والصين واليابان وايران والولايات المتحدة الامريكية. وقد أتت الحركة الأولية من الكونت مورافييف (Comte Mouraviev) وزير الشؤون الاجنبية لنيقولا الثاني. وقد بيّن في مذكرة وجهها الى الدول ان التسابق في ميدان التسلح يبتلع اقتصاد الدول وقواها واقترح ألاّ تقتصر الدراسة على تحديد التسلح بل ينبغي ان تشمل التوسط والتحكيم أيضاً. كان مآل هذا المؤتمر الأول إخفاقاً معظمه على أثر مقاومة المانيا، وسرعان ما انفجرت حرب البور (Boers) ثم الحرب الروسية اليابانية استجابة لهذه الجمعية الدولية الأولى.

وقد انعقد مؤتمر لاهاي الثاني في ١٩٠٧ بناء على طلب تيودور روزفلت. وقد دَوَّنَ هذا المؤتمرُ قواعدَ الحقوق الدولية وقت السلم والحرب وحقوق الدول والاشخاص المحايدين وواجباتهم. غير أن المسائل الاساسية اصطدمت بمقاومات متعددة، فكانت المانيا ترفض دوما تحديد التسلح وخضوعها التام الى التحكيم كما في ١٨٩٩. وقد أُوجِدَ مجلس للتحكيم مع ذلك يصغى إلى أحكامه أحيانا حينما تُطْلَقُ على مسائل ثانوية.

ونجد بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ امالا جديدة للتنظيم الحقوقي للسلم تتخذ صورة ميثاق عُصْبة الأمم الذي يشمل مبدأين أساسيين:

شمول العصبة وأمانة سر دائمة تضمن الأعمال خلالَ [١] المؤتمرات كأنه ينبغي أن يجتمع أعضاؤها في مؤتمر دولي بين فترة وأخرى.

ولكن سرعان ما اتيح لكل عضو أن ينسحب من العصبة بعد إعلانٍ سابقٍ. فلم يعد اذ ذاك الزام ولا عقوبة. واصبحت الرابطة نوعا من الاجتماع الحر لا تمتد صلاحيته الاّ الى اعضائه الذين يستطيعون ان يتحرروا من عهودٍ زاحمةٍ كثيراً إذا رغبوا. ثم كان **ميثاق كلوغ** (Kellogg) في ١٩٢٨. وقد وقعه في السابع والعشرين من آب ١٩٢٨ في باريز وزراء الشؤون الأجنبية لكل البلاد ومن بينها الريخ (Reich).

وقد كانت كل الدول تأخذ على نفسها عهدا بالكف عن الحرب كأداة للسياسة الوطنية. وما ينشأ عن ذلك معروف... وقد طرح **ميثاق الأطلنطي** في الرابع عشر من آب ١٩٤٤ بدوره قواعد السلام في المستقبل. وقد حضر مؤتمرَ (Dumbarton Oaks) في اجتماع سان فرنسيسكو التام ١٩٤٥ بوجه خاص سبعٌ وأربعون أمة. والغاية دائما هي نفسها: نشر السلام والامن الدولي. وقد رُفضت الحربُ رفضا رسميا وحُكِمَ عليها كما حدث في عصبة الأمم (S. D. N.) وفي ميثاق بriاند – كلوغ. وقد نودي بالمساواة بين كل الامم المتحدة.

---

(١) والخَلَلُ مُنْفَرَج ما بين كل شيئين... والجمع الخِلال مثل جَبَل وجبال... وهو خِلَلَهم وخلالَهم أي بينهم (اللسان).

ولكن يبدو أن مناهج عصبة الأمم (S. D. N.) أهمل قسم منها لأن :

١) القرارات يمكن ان تؤخذ بأكثرية (لا بالإجماع).

٢) ومجلس الامن المؤلف من احد عشر عضوا منهم خمسة كبار دائمون (الولايات المتحدة ، وبريطانيا العظمى ، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وفرنسا والصين) تحمّل في الواقع مسؤولية الحفاظ على السلام . وهو يملك اليد الطولى على القرارات التي تكتسب بتصويت إثباتي من سبعة أعضاء بينهم أصوات الأعضاء الدائمين الذين لهم حق المعارضة (Veto) إذا كانت متفقة .

- ان ميثاق سان فرنسيسكو الذي ما زال يبتعد عن روح ويلسون (Wilson) ينص على عقوباتٍ غير العقوبات الأخلاقية هي :

١) قطع العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية ووسائل الاتصال .

٢) واذا أعوز الامر فان المجلس يستطيع ان يستدعي القوى الجوية والبحرية والبرية اللازمة لحفظ الأمن العالمي . ويبدو لأول مرة أن سيادة الدول تُطْرَحُ للمناقشة .

كذلك ينص ميثاق الأمم المتحدة على تعاون عالمي في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والطبية والتربوية كما ينص على نظام عالمي للوصاية على الأراضي (Trustes ship) التي كانت تحت انتداب البلاد العدوة

كذلك ان ميثاق الامم المتحدة آخر محاولة عالمية لحفظ السلام . وهو عمل جيد ليس له الا خطيئة واحدة : تلكم أنه افترض المسألة محلولة ، لأن كل هذه المناهج تدعي انها تستطيع ان تقضي على الحرب من غير ان تعرف طبيعتها الحقيقية واسبابها الحقيقية وقوانينها الحقيقية . وعلى رغم الرغبة العالمية تخفق مساعي ممثلي الشعوب لأنهم يطبقون طريقة القضاة التي لا ترى في الحرب الآ خصاما مشابها لخصومات الافراد. ولا تملك الخصومات الفردية مع ذلك الانتظام ولا الضرورة (١) . أمَّا الحَرْبُ فهي حادثة عامة على وجه الاطلاق نجدها في كل المدنيات الانسانية من اقدمها الى احدثها .

ويمكن أن نلاحظ أن هناك نقطةً ثانيةً أيضاً تَفْتَرِضُ بها المخططاتُ القضائية منذ البداية أن المسألة محلولة : فهي تفترض ان الحرب هي الوسيلة التي تستعملها الدول لفرض ارادتها . ويبدو لها أن هذه الوسيلة عنيفة وهي تبتغي ان تعلن أنها محرمة أو أن تنظمها تنظيماً وثيقا . ولكن الحقيقة تبدو شيئا آخر : فليست الحرب آلتنا، وانما نحن آلات الحرب ، فهي حادثة دورية لا يمكن ان نقاومها (عناصرها المكوّنة كعلاقاتها بالأبنية الاجتماعية والمصادفات والظروف بعيدة عن أن تكون معروفة) تستولي علينا وتنشىء نفسها من خلالنا كأنها **مرض نفسيٍ سارٍ أو هذيان جماعي** .

---

(١) تثبت الاحصاءات ايضا ان عدد الجرائم والجنح السنوي في كل مجتمع يملك انتظاما ما .

ليست الحرب وسيلة ، وانما هي غاية بذاتها ، أو بالاحرى **غاية تتخفى على صورة وسيلة** . واذا حللنا معظم الحروب بدت غير معقولة بل غير إراديةٍ على وجه التقريب مثلها في ذلك مثل المرض الساري أو الهذيان . فاذا اردنا تنظيمها أو منعها بمقاييس قضائية فكأننا نريد أن نقضي على الطاعون أو الحمى التيفية بقانونٍ . ويمكن ان نصف ميثاق كلوغ مثلا بأنه « ميثاق الكف عن المرض » . ان الدور العملي الاساسي لعلم الاجتماع ينبغي أن يكون مساعدة الانسان على السيطرة على الدوافع الاجتماعية وتحويل القوى العمياء للقدر المحتوم وتصريفها . ولكن يجب قبل كل شيء معرفتها (٢) .

٧ . المخططات النفسية والقائمة على فلسفة اللذة .

انها تتفق على وجه العموم على ان الحرب نوع من العادة الوراثية أو من انحراف بعض دوافعنا . فيجب اذن ان نبعدها عن تفكير الناس **بالتربية** .

ان كل الديانات التي تعتبر الروح الإنسانية كثيراً أو قليلاً تمارس هذا الإرشاد . فالصلوات اليومية والأدعية والشعائر والاحتفالات كل أولئك يطلب السلام من الله : « Dona nobıs pacem » . وقد قامت منظمات عالمية مختلفة ايضا بجهد كبير لطرد روح الحرب من

---

(٢) ولنضف أن كل هذه المخططات القضائية ارتكبت خطأ في الاساس لأنها لم تستطع تحديد شرعية الدول خيراً مما استطاعت تحديد التقادم والتقادم المُكسِب في الحقوق الدولية .

الكتب المدرسية . ولكن الدعاية السلمية كمخططات السلام لم تنجح على وجه العموم الاّ في الغاء دوافع الحرب التي **بطلت أو زالت قيمتها** .

لقد وجد بعضهم ان الروح الحربية تنمو في حضاراتنا بقدر ما يضعف معنى العيد الدوري والمجمع عليه كالاعياد الدينية القديمة وأعياد الرقص مع الضوضاء والكرنفال والالعاب الاولمبية والحج الاكبر الخ ... فاقترحوا لتعويضها مقاييس اخرى في ميدان التسلية والترفيه : كتنظيم العطلات الصيفية والسياحة والجولات والاعياد والمؤتمرات والظاهرات الثقافية والرياضية والعَهارة [٣] الصائرة هي أيضاً إلى تسلية الافراد وإلهائهم والترويح عنهم إطلاق طاقاتهم من عِقالها .

يمكن ان نصل وجهة النظر الاخيرة هذه بميل قديم جدا يقوم على التفتيش عن محوِّلاتٍ قائمة على اللذة للحروب ودوافع الناس العنيفة . وكانت اشهر هذه المنظمات منظمة الحضارة اليونانية في اوجها . وبعدئذ كلما امتد السلام الروماني على مدن الامبراطورية أُدْخِل الخبزُ والملاعبُ الشعبية الرومانية إلى المدن البعيدة لتغذية السكان وتسليتهم وأثارة اهتمامهم . ولكن الحالة في الحضارات الحديثة يُعَسِّرها أن نسبةً كبيرةً من السكان تعيش على الاعداد للحرب . ان الآلية والتعقيل

---

(٣) عَهَرَ إليها يَعْهَرُ عَهْراً عَهَراً وعُهُوراً وعَهارةً وعُهُورةً وعاهَرَهَا عِهاراً أتاها ليلاً للفُجور ثم غلب على الزّنا مطلقاً (لسان العرب) .

وضعا في خدمة الحرب عددا متزايدا من الافراد الذين يُستَغنَى عنهم في أعمال الإنتاج. فينبغي ان نقلب تنظيمنا للعمل وحتى أخلاقنا.

بأن نخلق – كما أَحَسَّ فورييه – **حضارةً لاوقات الفراغ** وللعمل الجذاب قد يُكْرَهُ تصوُرها على وجه العموم من جرّاء مخلفات الماضي. فان مفهومنا في العمل لا يزال معتما بذكريات الرق والقنانة والعمل الاجباري.

المخططات الديمغرافية. – ان المخططات الديمغرافية تقوم على تقييد الاخصاب الطبيعي. ونحن واجدوها في صورة شتى خلال التاريخ. ومن أكثر الصور تميزاً عقلية المسيحيين الاوائل الذين كانوا يرفضون الخدمة العسكرية ويمدحون – بسبب العفة – عدم اخصاب جزء من السكان. وان ننسى لا ننسى الصوامع والاديرة التي كانت تغمر اوروبا بعمارات ضخمة هي – من وجهة نظر السلوك الموضوعي – آثار مرتفعة تدل على عدم الاخصاب. ومهما يكن التفسير الذي نقترحه فان الظاهرة باقية. ان دوامها وعموميتها ينبغي ان يدعوانا الى التفكير. لنذكر ايضا عددا من حضارات سكان الجزر – البولينزية بوجه خاص – التي كانت تمارس تقييد النسل. كان السكان في اليابان في غضون قرونٍ محدودين برقمٍ يقارب خمسةً وعشرين مليونا لكل الامبراطورية وكانوا يحافظون على هذا الرقم بكل الوسائل.

أما نظرية مالتوس فانها قائمة على وجه الخصوص على عدم كفاية المواد الغذائية. فالحرب كالمجاعات والاوبئة تعتبر في نظره وسيلة لاعادة

التوازن بين السكان والقوت . وكان مالتوس يكتب في نهاية القرن الثامن عشر . ونرى منذ ذلك الحين أن استغلال امريكا وأراض أخرى غنية – لكنها مقفرة إذ ذاك – سَوَّدَ في أوروبا رخاءً عظيماً تعارض مع النظرية المالتوسية . ولكن هذه النظرية تعود فاعلةً كلما هدد تزايد السكان بتجاوز تزايدُ موارد الرزق من جديد . ويبدو أن الارتفاع العام والدائم في اسعار المواد الغذائية يثبت ذلك .

غير أن هذه النظرية لا تعبر الاّ عن جزء من الظاهرة لأن الحرب في صورتها المتحضرة ظاهرة رخاء موجه توجيها سيئا . والعامل الديمغرافي مع ذلك يؤدي دوراً كبيراً فيها لأن الرخاء الذي يسبق الحرب يحتوي على **زيادة في الانتاج وزيادة في الرجال العاطلين عن العمل في آن واحد.**

ولنلاحظ أن مخططات السلم الديمغرافية – من بين كل المخططات التي ذكرناها – هي الوحيدة التي لم تحظ حتى ببداية تطبيق الاّ في حضارات بدائية أو قديمة تختلف شروطها كثيرا عن شروطنا فلا يمكن أن نستخلص منها ارشاداً . وثمة شيء مدهش : فبينا يحرز الطب والصحة تقدماً هائلاً نشاهد أن العقلية والقوانين في موضوع السكان بقيت في معظم البلاد كما كانت يوم كان ينبغي أن يولد عشرة أولادٍ حتى يسلم منهم واحد . فنظام التوجيه الوحيد الذي يمارس في شأن السكان يقوم – حتى في البلاد الكثيرةِ السكان – على الدفع الى زيادةٍ غير مرتبةٍ بدون تمييزٍ .

ونجد اليوم ان البلدين اللذين يبدوان أقدر على زج العالم في فاجعة حربية هما على وجه الضبط البلدان اللذان يحويان أكبر قدرٍ من المَوارِدَ الطبيعيةِ واكبر نسبة من الشبان في الوقت نفسه. فروسيا والولايات المتحدة - من جرّاء شدة تعقيلها الصناعي والتكنيكي - يمكن ان تضعا نسبة هائلة من الشبان في خدمة الحرب بدون أن يسبب ذلك ضيقا كبيرا في انتاجها. فبناؤهما اذن بناء انفجاري مملوء بالتهديد والوعيد... ولسوف تطرح مسألة نزع **التسلح الديمغرافي** في حضاراتنا المشبعة بالناس ان عاجلا أو آجلا، وهذا لا يقتصر على التنظيم العددي بل يعني ايضا وضع نسبة للرهوط والاعمار والاجناس بمساعدة تقدم علم الاحياء وعلم الوراثة.

ان اعلان حقوق الانسان الذي ناقشته منظمة اليونسكو (U.N.E.S.C.O.) مناقشة بارعة نسي نقطة اساسية مع ذلك. ففي حضارة مرتبة ترتيبا عالميا سواء أكانت اشتراكية أم حرة يمكن منح الانسان كل الحقوق التي يشاؤونها الاّ **حق النسل بلا رَوِيَّة** لأنه عندئذ يعرض التوازن الاقتصادي وأمن المجموع للخطر.

٨. مخططات نزع التسلح

ان الاستدلال الذي تقوم عليه هذه المخططات من أبسط الاستدلالات: بما أن القتال يحدث بواسطة السلاح يكفي ان نلغيه حتى نبيد الحرب الضربة نفسها.

يطالب بعضهم بمنع كل انواع السلاح. ولكنهم قليلون لأن كل شيء يمكن ينقلب سلاحا من عصا الغوزيلـلا حتى الحجارة المنحوتة أو غير المنحوتة.

وثمة برنامج آخر يقوم على منع بعض الاسلحة لعدم شرعيتها كما حصل في القرن الثاني عشر عندما حاول أحد البابوات أن يحرم استعمال الاقواس والسهام. وقد حرّم مجمع لاتَران (Latran) بعدئذ القَذّاف. ولكن سرعان ما حصل الاعتياد: فكان ظهور كل سلاح جديد يقابل بالسخط، ثم لا يلبث هذا السلاح ان يدخل في جملة العادات ان امكن القول.

ان القنابل الجوية كالحرب تحت البحر خضعت للمنع المبدئي أيضاً لأن استعمالها يمتد حتما الى قتل الآمنين وتدمير اموالهم. ولكن هذا المنع لم يفد.

وامام هذه الضروب من الاخفاق تبنى اصحاب نظريات وجهة نظر مقابلة: فقد تمنوا لو تزداد الأسلحة تدميرا حتى لا يجرؤ الناس – كما يعتقدون – على بعث الحرب، ولسوف تبلغ هذه الحروب نهايتها بالرعب الذي توحيه الاسلحة الموضوعة في خدمتها. وهنا ايضا كذبت التجربة – حتى الآن على الاقل – هذه التنبؤات.

فما هو تأثير التسلح على وجه الضبط؟ يجب ان نفرق بين نتائجه

المحربة وتأثيره في التاريخ [١] . فمن وجهة نظر التخريبات يبدو أننا لا نجد علاقة مباشرة ومؤكدة بين تفوق الاسلحة والخسائر التي تسببها الحروب المتتابعة . فكل شيء يتعلق بالطريقة التي يستعمل بها السلاح . ان اكبر مجازر التاريخ – نضرب مثلا مجازر حروب القرطاجيين أو جنكيزخان وتيمورلنك – تمّت بأقواس وسهام وحراب (أو مزراقٍ [٢] رومانيّ) وسيوف صغيرة مضحكة . بخلاف ذلك إن تقدم التسلح يمكن ان يضمن تقدماً سياسياً أو حماية ناجعة للذين يملكونه على اقل تقدير. فلربما عاشت بيزنطة **بالنار الاغريقية** ثمانية قرون بعد الامبراطورية الرومانية. والمدفع أو تقدم الاسلحة النارية على وجه العموم هو الذي وضع حداً لغارات المغول والتتار. ان التاريخ العسكري تاريخ جهد دائم للتلاؤم بين السلاح والدرع من جهة وبين اساليب العمل الفنية والعَدَدِ من جهة أخرى .

الى جانب مخططات تحديد التسلح نجد مخططات لتحديد أعداد الجنود أو لإلغاء الجيوش . لقد استوحت هذه المخططات قبل كل شيء الفكرة القائلة بأن الجيوش الدائمة او قادة هذه الجيوش مشبعون بروح حربية لا تقمع . وقد كان برفوست – بارادول (Prévost-paradol) يقول : « ان الجيش في حاجة الى القتال كحاجة القاطرات إلى السير حتى لا تصبح حديدا عتيقا . فهو يستخلص من النضال الشرف

---

(1) Voir Fuller, *L'influence de l'arment sur l'histoire.*

(٢) والمِزْراق من الرماح رمح قصير (لسان العرب) .

والظهور والمكافأة والتقدم والفائدة » . وهذه العبارة تلخص النظريات **المعادية للنزعة العسكرية** التي نراها تعود الى الظهور من فترة الى اخرى . ولكنها لا تحل شيئا لأن كل رجل هو جندي مضمر . واذا كان القادة كجراحي الشعوب فهل يجب ان نهاجم الجرّاح أو المرض ؟

ويمكن اخيرا ان نقرب من مشروعات محو الجيوش المشروعات التي تريد إلغاء الجيوش الوطنية وتعويضها بجيش دولي وحيد يكون في خدمة عصبة الامم . ان هذا المشروع لا يعدم الأدلة الجاذبة . ولكن يمكن مع ذلك ان نوجه اليه المآخذَ التي وجهناها الى مشروعات الدولة الوحيدة نفسَها . يمكن أن نخاف من أن جيشاً من هذا النوع وقد أصبح وحيداً في العالم لا يَعُودُ يخشى مُزَاحَةً أجنبيةً فَيُستَدْرَجُ إلى القبض على السلطة أو الى التدخل في الخصومات السياسية أو الايديولوجية الداخلية . والعناصر التي تكوّن هذا الجيش سوق تفتن بألف صورة للتحزب في هذه الانواع من المعارك على حسب تقاربها أو آرائها . إن مصدر المعارك قد يبلغ أن يكون في الطموح الشخصي للقادة أو في عصبية الوحدات التي تكوّنه : والمنافسات الفردية ومنها مجرد المشاجرة أحياناً قد تستحيل حروباً أهليةً حقيقيةً ، كما رأينا ألفَ شاهدٍ على ذلك في تاريخ الجيوش .

« خاتمة »

الحرب ظاهرة أعيدت ألف مرة . فإذا افترضنا أنها ظاهرةً تحدث في أوقاتٍ غير منتظمةٍ مستقلةً عن كل سببية قصدية وغير خاضعة لأي شرط ولا لأي احتمال وأنها ما هي إلاّ هوىً أو رغبة أو خبث تقوم بها الامم أو قادتها بلا داعٍ وجب ان نتركها للأدب ونبتعد عن دراستها .

هناك آخرون يعتقدون بأن الحرب إن هي إلا مسألة مصادفاتٍ[1] تاريخيةٍ. ولكن – والأسف يراود انفسنا – مهما تكن المصادفة فانه يمكن ان نجد فيها دائما اسبابا جيدة للقتال . ان حجج الحرب – ككل الظاهرات الاجتماعية الاخرى – لها اساليبها التي تخضع لها . فهذا الذي يبتسم رأفةً لذكر من تقاتلوا في سبيل عبارة قالها القديس اوغسطين هو مستعد لأن يعرّض نفسه للقتل في سبيل نظرية سياسية تعجبه . ان المزاحمات بين الشعوب المتجاورة هي حتمية جغرافية غالبا . وان اسباب خصامها تبقى كما هي في غضون قرون .

---

(١) والمصادفة الموافقة (لسان العرب) .

وهي مع ذلك تُحتَمَلُ أحيانا ولا تُحتَمَلُ احيانا أخرى . وهي تخمد ثم لا تلبث ان تشتعل. فما السبب؟

لقد وجدنا بأنفسنا أن مشروع دراسة الحرب دراسة علمية قبل الحكم عليها يثير مقاومات خَفِيَّةً. ولكن ليس ثمة مجال للعجب : أوليست الحرب ميدان المخاوف المقدسة كما كانت الصاعقة والرعد فيما مضى تُحَرَّمُ دراستُها على الفيزيائيين مخترقي الحُرُماتِ؟ وان ننسى لا ننسى ان الناس فيما مضى كانوا يسيغون الألم ولا يرضون بالتشريح .

واذا كان الناس والأمم والدول لا يشجعون الدراسة العلمية للحروب . (وأي **معهدٍ للحروب** لا يكلّف ثمن دبابةٍ حربيةٍ متوسطةٍ أو طائرة مطاردةٍ) فهل سبب ذلك أنهم يخشون خشية غامضة أن يروا عيدهم الأكثر فتنة وملجأهم الأخير يختفيان؟

إن النزوع الطبيعي للفكر الانساني هو الاعتقادِ قبل المعرفة . وان تفكيرنا — فيما يختص بالحرب — تسيطر عليه العبارات التالية : «لا يوجد إلا أنْ ... «أو» يكفي أن ... » فنحن ضحايا للبداهة الكاذبة للحرب ، ولبواعثها المختلطة غالباً بقضايا على وجه الخصوص . ان العقلية السحرية التي طردت من العلوم الفيزيائية اخيرا التجأت الى الاشياء الاجتماعية في ايامنا هذه . لقد كان الطب التجريبي يزعم في الماضي انه يجد الادوية من غير دراسة الامراض . ولكن الطب لا



يحرز (٢) أي تقدم لو اقتصر على العمليين من دون علماء الاحياء. فالمخبر أهم من المستشفى للتقدم الحقيقي. كذلك لن نحصل عَوْضُ الاّ على مُسكِّنات في مادة الحرب اذا لم نقم **علما اجتماعياً حقيقياً للحرب** له مناهجه الخاصة في البحث.

ان هذه النتيجة هي النتيجة الوحيدة **الموضوعية والخالية من الاوهام** التي يبدو لنا – في **الحالة الراهنة لمعارفنا** – أننا قادرون على استنتاجها من دراسة الحروب.

حرب أو علم اجتماعي للحرب. – يعاني زماننا مأساةً حقيقيةً يزداد العالم كله وعياً لها: فالحرب كامنة في العلاقات بين الأمم في يومنا هذا وفي العصور القديمة أو العصور الوسطى. وهي ما تزال قاعدة الحقوقِ الدوليةِ ومعيارَ استقلالِ الأممِ ومُسَوِّغَةُ.

إن مشكلة الحرب منذ ألف سنةٍ مما نَعُدُّ لم تستطع أن تخرج من دُوّامتها: فهي تتردد بين نزعة الوهم القضائي وحب السلم الذي يداعب الأجفان ثم تفضي إلى النتيجة التي يلخصها المثل الروماني القديم: «إذا أردت السلام فأَعِدَّ الحرب».

والحال أن الحرب ضرب من **الوباء الاجتماعي**: فينبغي لنا أن نبلغ

---

(٢) وأَحْرَزَ الشيءَ فهو مُحْرَزٌ وَحَرِيزٌ حازَه (لسان العرب).

أولاً إلى معرفة « ظاهرة الحرب » معرفةً موضوعيةً حتى نقوى على أن نفكّر في بلوغ **سلمٍ علميٍّ** تفكيراً حقاً.

إن دراسة علم الحرب الاجتماعي تتيح لنا، في سبيل بلوغ تلك المعرفة، أن نضع مشكلات الحرب والسلم على أرضٍ جديدةٍ. وأقل ما يقال أنها تؤلف تحوّلاً فكرياً ورأياً جديداً يجيزان لنا أن ننزع طابع القداسة عن الحرب وطابع السياسة عن السلم.

وإذا أردنا تعبيراً آخر قلنا: يبدو في الظروف الراهنة أنْ ليس لنا إلا واحد من اثنين: فإمّا أنْ نظلّ نُعِدُّ أنفسنا للحرب ونزداد تسلحاً أو أنْ ننتظر اندلاعها لأيّ سببٍ مرةً أخرى وإمّا أنْ نرى فيها ظاهرةً اجتماعيةً نستطيعُ دراستها في وظائفها وعناصرها المكوِّنة وأسبابها فنستطيع **الوقاية الوظيفية** منها.

وخلاصة القول أنه كُتِبَ علينا أن نُعِدَّ أنفسَنا للحرب أو أن نعمل لعلم الحرب الاجتماعي.

أسس المؤلف « المعهد الفرنسي لعلم الحرب الاجتماعي » (Institut Français de Polémologie) سنة ١٩٤٥. ولم يُجَهَّزْ هذا المعهدُ ببعض الوسائل إلا منذ ست سنواتٍ (١). وهو ينصرف إلى بحوثٍ علميةٍ في الحرب والسلام والظاهرات القريبة كالعدوان، وينشر مجلةً دوريةً عنوانها: Etudes polémologiques

---

(١) ذُكرت هذه الحاشية في طبعةِ الكتاب الخامسة الصادرة سنة ١٩٧٣ (المترجم).

الفهرس

صفحة

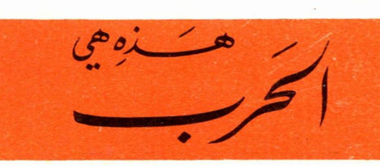
منشورات عويدات ١٩٨١/٦٧٨
المطبعة البولسية – جونيه – لبنان

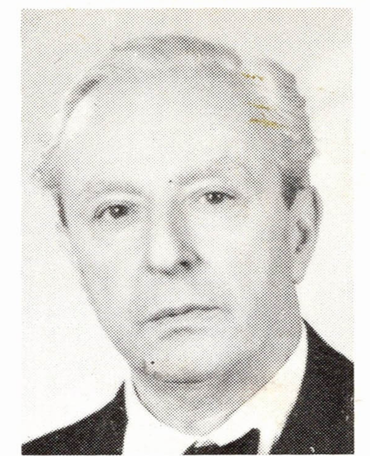
Gaston BOUTHOUL

LA GUERRE

Traduction Arabe
de
Marwan EL-QUANAWATI

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris





من أغرب التحديدات وأطرفها ، ان تكون الحرب « اروع الظاهرات الاجتماعية » ، وأن تكون « هي التي ولّدت التاريخ » .

فليس واضحاً في العهود الغابرة الا تاريخ المعارك .

لا غرابة اذن ، ان تكون الحروب ، هي المحطات الأبرز في التاريخ ، فيقال تدليلاً على حادثة أو حدث : « تم ذلك قبل الحرب المذكورة أو بعدها » .

وربما ان مفهوم الحرب نفسه ، هو الذي يعطي ، اكثر، أهمية لمفهوم السلم . . .

واكثر: لم تقم اصلاحات في التاريخ ، أو تغييرات جذرية لدى الشعوب ، أو تبديلات اساسية في الانظمة السياسية ، الا بعد الحروب المصيرية .

من هنا ، ما حاول ان يبرزه العالم الاجتماعي البارز غاستون بوتول ، في هذا الكتاب الاكاديمي الرصين ، من سوسيولوجيا الحرب ، وتاريخ الحروب ، وتحديد ظاهرتها وخصائصها الاتنولوجية وخطوطها النفسية ومميزاتها المعاشية ، ومظاهر السكان في أثنائها .

واذا كان أصل الدول ، هو اجتماع الجماعات الظافرة بالجماعات المستعبدة ، فلا بدّ اذن من الحروب ، أبداً ، ليبقى الظافر ، فتكون الدول ، عندها ، بنات الحرب .

هل مستغرب ، بعد ، أن تكون الحروب « هي التي تولّد التاريخ »؟

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris